

رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية

٣٣

نوبة قلبية

(مجموعة قصصية)

(قصص قصيرة)

نقلها عن الأردية وقدم لها

د. سمير عبد الحميد إبراهيم

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

مجموعة قصصية مترجمة عن الأردية فازت بالجائزة الثانية في المسابقة الأدبية التي

أعلنتها رابطة الأدب الإسلامي لترجمة النصوص الإبداعية لأداب الشعوب الإسلامية

العبد
Obékan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إبراهيم، سمير عبد الحميد

نوبة قلبية. / سمير عبد الحميد إبراهيم. - الرياض، ١٤٣٠هـ

٢١٤ ص؛ ١٤ × ١٢ سم

ردمك: ٧-٧٤٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص القصيرة الأردنية

أ- العنوان

١٤٣٠ / ٣٤١١

ديوي ٨٩١،٣٤٩

رقم الإيداع: ١٤٣٠ / ٣٤١١

ردمك: ٧-٧٤٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

العبيكان
Obaikan

التوزيع: مكتبة

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤٦٥٠١٢٩ / ٤١٦٠٠١٨ فاكس ٤٦٥٤٤٢٤

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

العبيكان
Obaikan

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeikati.com

obeikandi.com

المحتويات

- ٧ تقديم، (بقلم المترجم)
- ١٥ القصة القصيرة في الأدب الأردني (بقلم المترجم) ...
- ٢٩ الصدمة الثانية، زكية بلكرامي
- ٥٣ أين أذهب؟، ظفر حبيب
- ٦١ شعاع الشمس الأخير، غافر شهزاد
- ٦٧ شوكة في بستانك الجديد، عقيلة كاظمي
- ٨٧ جني القمقم، أ. س. حميد
- ٩٩ نوبة قلبية، ظفر إقبال
- ١٠٧ ساحة العرض، نجم الحسن رضوي
- ١١٢ الوصية، ستار طاهر

- ١٢٣ - كرب، سلمى ياسين
- ١٣٣ - الابن والابنة، شمس نعمان
- ١٤٣ - ثمن الحرية، عقيلة كاظمي
- ١٥٥ - تفاهم، محمد سعيد شيخ
- ١٦٩ - الماضي والمستقبل، ممتاز مفتي
- ١٧٩ - كشف، بانوقدية
- ١٩٩ - وخز، أحمد نديم قاسمي

تقديم

هذه مجموعة من القصص القصيرة أُخِيت بدقة وعناية؛ حتى تمثل اتجاهات القصة القصيرة المعاصرة في الأدب الأردني، والعناوين التي وردت هنا ترجمة دقيقة لعناوين القصص الأردنية، وينطبق هذا أيضاً على ترجمة محتوى كل قصة، فقد توخيت الدقة والأمانة ولم تحذف عبارة وردت في الأصل، كما لم أعمد إلى أي زيادة، وإن حدث - وهو أمر نادر- وضعت الكلمة أو العبارة بين قوسين.

تضمنت هذه المجموعة القصصية قصصاً قصيرة لأدباء لهم مكانتهم في الأدب الأردني مثل: أحمد نديم قاسمي، وممتاز مفتي وبانوقدسية وأي حميد وشبان أدباء احتلوا أيضاً مكانتهم في الأدب الأردني، وبخاصة في فن القصة القصيرة ومنهم: عقيلة كاظمي، زكية بلكرامي، ستار طاهر، ظفر إقبال، غافر شهزاد، شمس نعمان، سلمى ياسمين، محمد سعيد شيخ ونجم الحسن رضوي.

وقد أُخِيت هذه المجموعة القصصية بعد قراءة متأنية لأكثر من خمسين قصة قصيرة نشرت في مجلات أدبية متفرقة وضمن مجموعات قصصية لأدباء من شبه القارة الهندية الباكستانية،

وهذه القصص تمثل في معظمها الاتجاه الواقعي، وهي قصص تتسم بالصدق في نقل صورة المجتمع في شبه القارة وفيها عمق، فالأفكار جديدة ونبيلة واللغة معبرة وشخصياتها مرسومة بدقة.

وفي معظم القصص المختارة هنا نرى الأحداث ذات طابع اجتماعي، ديني، سياسي وأحياناً فلسفي وأخلاقي، فالأدباء هنا يرصدون الواقع كيفما تسنى لهم، ويختارون من الأحداث ما يخدم الغرض.. وسوف يطالع القارئ قصصاً تعالج أحداثاً مختلفة في أزمنة مختلفة، وفي أمكنة مختلفة.

أما لغة هذه القصص في مجموعها، فهي في الحقيقة لغة الحياة اليومية، ولغة التفاهم المستخدمة بين الناس كل يوم، وقد أشار إلى هذا بوضوح الأديب ممتاز مفتي، إلا أن بعض القصص تضمنت لغة سمت قليلاً عن لغة الحديث التي أشار إليها ممتاز مفتي، ولا يعني هذا أن اللغة التي أشار إليها ممتاز مفتي لغة مبتذلة.. لا.. إنه يعني التعبير عن المشاعر بالمصطلح الذي يجد صداه لدى الطرف الآخر، فيؤثر فيه.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الترجمة العربية للقصص الأردنية حافظت بقدر الإمكان على روح النص الأصلي وروح العبارة وروح الجملة، وما تتركه الألفاظ من ظلال على المعاني، وقد تمّ هذا دون الخروج على النص الأصلي.

وهذه القصص القصيرة التي نقدم ترجمتها للقارئ العربي، لم يقتصر مؤلفوها على تصوير المجتمع فقط، بل تغلغلوا في النفس

البشرية، وأوضحوا أثر الأحداث في الأفراد والجماعات.. ولما كانت القصة تحتاج إلى الحوار في بعض أجزائها، فقد اهتم بهذا أدباء الأردية الذين كتبوا القصة القصيرة، وضمن هذه المجموعة نلاحظ أجزاء تضمنت حواراً بين الشخصيات، والحوار له أهميته كما هو معروف في السمو بظن القصة القصيرة؛ لأنه يبين الشخصية، ويضيف حيوية إلى الحدث، ثم هو عامل أساسي ومهم يبين كيف تفكر الشخصية من ناحية، ثم يوضح نوعيتها التي تظهر طريقة التفكير ونوعية الحوار من ناحية أخرى، ويمكن أن نلاحظ هذا بوضوح في قصة «الماضي والمستقبل» للأديب ممتاز مفتي، وكذلك في قصة «الابن والابنة والله» للأديب شمس نعمان و«كرب» للأديبة سلمى ياسمين و«كشف» للأديبة بانوقدسية.

وقد أُخْتِيرت قصص هذه المجموعة؛ ليطم التعامل مع كل منها على حدة بوصفه وحدة فنية داخل إطار فكرة المعنى والحبكة والأسلوب والسياق والتراكيب اللغوية والمفردات ذات الدلالة وثقافة المتلقي، والأمر الأخير هو الأهم؛ لأن المتلقي هنا هو القارئ العربي، وما يتلقاه مترجم عن لغة أخرى لقصص وضعت لقارئ آخر هو المتلقي لها وبيئته مختلفة إلا أن العامل المشترك هنا هو الإسلام وثقافته وحضارته والبيئة التي يفرضها، ومن هنا كان التنازع أحياناً داخل هذه القصص بين البيئة التي تمثل مثالية الكاتب، وهي البيئة الإسلامية، والبيئة التي تؤثر لا شعورياً في شخصيات القصص، وهي بيئة شبه القارة الهندية بموروثها القديم، هذا بالإضافة إلى أن المتلقي في شبه القارة يعرف تاريخه، ويعرف تقاليد مجتمعه، وأحياناً يجد المترجم نفسه مضطراً إلى شرح بعض النقاط غير الواضحة في أثناء الترجمة مما يقلل من

ثم الناحية الفنية للقصة المترجمة، ولهذا حرصت كل الحرص في اختياري لهذه المجموعة القصصية أن تكون من النوع الذي لا يحتاج إلى شرح في أثناء الترجمة.

أما من ناحية اللغة، فالترجمة هنا تنقل المعنى إلى العربية مع المحافظة على ما يسمى فنياً بالتكنيك الموجود في القصة بلغتها الأصلية أي الأردنية، وقد حاولت قدر جهدي الحفاظ على جمال الأسلوب والسياق ونقل التراكيب الأردنية إلى العربية، وكذا الصور.

وأهم ما تجب الإشارة إليه هنا هو أن أدباء الأردن في معظمهم يعالجون قضايا تهم المجتمع الإسلامي، واتجاههم في أسلوب المعالجة اتجاه إسلامي خالص، وهذا باختصار يعبر عن روح الأدب الهادف، وبعبارة أخرى يعبر عن مفهوم «الأدب الإسلامي».. ويتضح هذا جلياً حين نستعرض قصص هذه المجموعة التي تمثل بحق الاتجاه الغالب في فن القصة القصيرة في الأدب الأردني.

- القصة الأولى في هذه المجموعة «الصدمة الثانية» للأديبة ذكية بلكرامي تتناول قضية تتعلق بالإنسان المسلم الذي يصيبه الغرور والكبر ويكفر -والعياذ بالله- بنعم الله -عز وجل- وتضع الكاتبة لقصتها نهاية هي عبرة لكل متكبر مغرور جاحد بأنعم ربه، وترسم الكاتبة بطريقة ضمنية صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم في علاقاته الفردية والجماعية.

- وقصة الأديب ظفر حبيب «أين أذهب» تتناول موضوع الفتنة الطائفية، وأما يطلق عليه بالأردنية «فسادات» في شبه القارة

الهندية ويرسم الأديب صورة واقعية لوضع المسلمين في الهند، واستعمل الرمز، فكشف عن الحقيقة بوضوح، ورسم صورة وضح من خلالها تسامح المسلمين مع غيرهم من جيرانهم ومدى ما يتعرضون له من بطش وقهر، ومدى ما تتعرض له ملامح الحضارة الإسلامية في الهند من هدم وتخريب على أيدي غير المسلمين، يعضدهم في هذا السلطات الرسمية، ويخاطب الأديب ضمير العالم على لسان بطل قصته قائلاً: أين أذهب؟

- قصة «شعاع الشمس الأخير» للأديب غافر شهزاد قصة التقطها الأديب من أحد شوارع مدينة لاهور الباكستانية؛ ليبين للقارئ الانتقام الإلهي، فبطل القصة سائق «تاكسي» يعود بالدواء إلى بيته فيجد فلذة كبده، ابنه الوحيد قد فارق الحياة.. ومن بعيد تنهأ إلى سماعه صوت الأذان.. وكان سائق التاكسي قد تأخر في إيصال طفلة مريضة إلى المستشفى، وراح يسير بالسيارة مسافة أطول؛ لينال أجرًا أكبر، مما نتج عنه وفاة الطفلة؛ لأنها لن تصل في الوقت المناسب، وقد أبدع الكاتب تصوير شخصية بطل قصته الذي وصل إلى بيته مع آخر شعاع لشمس الغروب..

- قصة «شوكة» لعقيلة كاظمي تناقش ما يدور من صراع داخل الأسرة الواحدة، فالثروة حطت فجأة فغيرت من شخصية الإنسان.. حتى أصبح يتماذى هذا الإنسان في بطشه إلى أن يأتي اليوم الذي ينال فيه جزاء غروره.. وهكذا أصيبت «سعدية» بالجنون.. ابنها وزوجته أخواته وإخوتها.. حتى بناتها قل أن يذكرها، وقل أن يزورها حيث تقضي أيامها الأخيرة في مستشفى الأمراض العقلية.

- قصة «جني القمقم» للأديب أ.س حميد قصة فيها دعابة وسخرية، فيها رمز وإسقاط والهدف الأساسي الذي يريد الكاتب إيصاله إلى الذهن هو بيان ما يقوم به بعض الناس من خداع الآخرين عن طريق إقامة المزارات والقباب واستجلاب النذور، وما إلى ذلك من تقديس القبور.

- قصة الأديب ظفر إقبال «نوبة قلبية» تعالج قضية الغربة والمغتربين وما ينتج عنها من مشكلات أسرية بين الزوج وزوجه.. فالزوج مغترب يعاني الوحدة والشقاء والزوجة تعاني وحدها داخل بيت أسرته، ولا تجد أي فرصة للانفراد به حتى خلال إجازته القصيرة كل عام، فتقرر أن تشرح له معاناتها، وحين يقرأ رسالتها يدرك الحقيقة، ويصعب عليه تحمل مرارتها، فيصاب لأول مرة بنوبة قلبية.

- قصة «ساحة العرض» للأديب نجم الحسن رضوي تعالج موضوع الغربة أيضاً، لكن بأسلوب آخر وفي اتجاه آخر، فالمغترب هنا صبي صغير في ميدان سباق الهجن يصاب ويحمل إلى المستشفى، وأبوه برغم هذا يود أن يسلم الأخ الأصغر إلى حلبة السباق مرة أخرى فيعتصر الصبي الألم وهو مشدود داخل الأربطة والأنابيب على سرير المستشفى، وقد تراءت له المشاهد المحيطة به وكأنها ساحة لعرض المأساة التي لا يريد لأخيه الأصغر الوقوع فيها.

- قصة «كرب» تعالج قضية المغتربين المسلمين، وبخاصة في أوروبا، فهؤلاء يذوبون في المجتمعات الغربية فينسبون دينهم وعقيدتهم، والقصة تصيب القارئ فعلاً بالكرب، وقد نجحت الكاتبة في إيصال رسالتها إلى القراء بوضوح.

- وللمغتربين حكاية أخرى قدمها شمس نعمان في قصته «الابن والابنة واللّه»، وهي حكاية يمكن أن نجدها في باكستان وفي مصر أو السودان أو في الشام أو في غيرها والأديب يريد أن يقول: إن حب الثروة إذا تغلغل بداخل الإنسان، فسيغلب على صلوات الدم.. صلوات الرحم، وتكون المأساة.

- وإلى غربة من نوع آخر، غربة داخلية، فالمسلمون في وطنهم كشمير يعيشون كالغرباء، لكنهم لا يخضعون ولا يخنعون.. بل يجاهدون ويناضلون.. وثمان الحرية في كشمير ثمن باهظ، والحكاية على لسان فتاة من كشمير جعلتها الأديبة عقيلة كاظمي تحكيها لأبيها، وقد نشرت القصة في أبريل من عام ١٩٩٤م خلال تعرض أهالي كشمير لهجمات الجنود الهنادكة الشرسة، وسيطرتهم على دور العبادة وهدمهم وحرقهم لبيوت المسلمين واغتصابهم للنساء وقتلهم للشبان.

- قصة «تفاهم» للأديب محمد سعيد شيخ تصور حياة المجتمع المسلم في شبه القارة الهندية والقلق الذي يصيب أفرادها إذا ما تعرضوا لما يمس سمعتهم بوصفهم مسلمين شرفاء، حتى لو كان الأمر مجرد إشاعة.. ترى كيف تتم معالجة هذه القضية إذا ما حدثت..؟! هذا ما كتبه لنا الأديب وهو يرسم صورة رائعة لشخصياته؛ لتعبر بصدق عما يعاني منه المجتمع المسلم في شبه القارة الهندية الباكستانية.

- وموضوع قصة «الماضي والمستقبل» يتشابه إلى حد ما مع موضوع القصة السابقة، فقد عبر الأديب ممتاز مفتي عن روح الشباب في

المجتمع الإسلامي، وكيف يصر هؤلاء الشباب على أن يمضوا على طريق الإسلام بوعي على الدرب الصحيح.

- قصة الأدبية الكبيرة بانوقدسية «كشف» تناولت الحياة الاجتماعية داخل حارة صغيرة، وهي تتعاطف مع شخصياتها، وتود أن تساعدها لاتخاذ قراراتها بنفسها، وذلك عن طريق كشف الحقيقة بوضوح، وعن طريق الكشف عن المشاعر الصادقة.

- أما القصة الأخيرة هنا وهي «وخز» للأديب الشهير أحمد نديم قاسمي، فهي تعالج موضوع الأضرحة والندور، وما يروج له في منطقة ريف البنجاب من خرافات وخزعبلات وبدع تتنافى مع تعاليم الإسلام، وقد عالج الأديب هذه الفكرة بأسلوب رائع ممتع.

كانت هذه نبذة موجزة عن هذه المجموعة القصصية التي تقدم للطبع أول مرة من خلال رابطة الأدب الإسلامي العالمية.. وهي كما يلاحظ في مجموعها تعبر بكل وضوح عن الاتجاه الإسلامي في واحد من أهم أنماط الأدب الأردني، وهو فن القصة القصيرة.

والله أدعو أن أكون قد وفقت في اختيار هذه النماذج، وفي ترجمتها والتقديم لها.. وأدعو الله أن يوفقني لاختيار المزيد من النماذج الأدبية الأخرى، وترجمتها إلى العربية.

د. سمير عبد الحميد إبراهيم

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض - غرة رجب - ١٤١٤هـ

القصة القصيرة في الأدب الأردني

بقلم: د. سمير عبد الحميد إبراهيم

على الرغم من أن بعضهم يؤرخ لبداية فن القصة القصيرة في الأدب الأردني مع بداية القرن العشرين الميلادي، إلا أن إرهابات هذا الفن ظهرت في الأدب الأردني منذ مدة سابقة، لكن المحاولات الأولى كانت محاولات ناقصة.

ومن الجدير بالذكر أن المرأة قد شاركت الرجل منذ البداية كتابة فن القصة، وكان سيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة الإسلامية قد دعا إلى ضرورة إعطاء المرأة قسطاً من التعليم، يتناسب مع إمكانياتها، ولا يتعارض مع ظروفها بوصفها امرأة مسلمة، وظهرت عدة مجلات مثل «تهذيب نسوان» و«شريف بي بي» مما أوجد فرصة لدى بعض النساء الموهوبات لكتابة القصص والروايات، ومن هؤلاء: رشيدة النساء بيغم التي كتبت رواية بعنوان «إصلاح النساء» وذلك سنة ١٨٨١م تناولت فيها موضوع العادات والتقاليد التي تسيطر على النساء في الهند، وما تتعرض له الأسر العريقة من دمار وفساد وأسباب ذلك. وتعد رشيدة النساء أول أديبة كتبت الرواية الأردنية.

كان للمجلات الأدبية الأردنية التي ظهرت في الحقبة اللاحقة لحركة سيد أحمد خان أثرها الإيجابي في تطور القصة الأردنية، فقد بدأت نماذج القصة الأردنية تنشر في مجلة «مخزن» و«زمانه» وغيرها، وكان من مشاهير الأدباء الذين كتبوا في المجلات الأدبية: راشد الخيري، وسجاد حيدر يلدرم، وسلطان حيدر جوش، ومنشي بريم تشند. وهؤلاء جميعاً كتبوا في فن القصة القصيرة، وقام سجاد حيدر يلدرم بترجمة القصص القصيرة من اللغة التركية إلى الأردنية، واستفاد منها، إلا أنه أبداع بعد ذلك في كتابة فن القصة القصيرة الأردنية.

تطور فن القصة القصيرة في العقدين الأولين من القرن العشرين الميلادي بسرعة وشهدت هذه الحقبة يقظة جديدة في إحساس أهالي شبه القارة، بالإضافة إلى الإحساس بالحزن نتيجة لضياع الحرية وسيطرة الإنجليز على مقاليد الحكم في البلاد، وظهرت عاطفة جياشة في قلوب الجميع من أجل الحصول على الحرية، وظهرت حركات اليقظة السياسية في عموم البلاد، وبخاصة بين المسلمين.. وقام بعض الأدباء في قصصهم بالإبداع الفني، بالإضافة إلى وضع هدف لرواياتهم وقصصهم. فها هو راشد الخيري يتمنى خلال قصصه أن يتخلص المجتمع المسلم من العادات والتقاليد السيئة التي سيطرت على النساء، وهي تقاليد وعادات كانت تتعارض مع تعاليم الإسلام.. ونلاحظ هذا في قصصه: فرشته بيوي (الزوجة الملاك) ومامتا (حنان الأم) وغيرها من روايات عبر فيها عن مأساة المرأة في المجتمع نتيجة سيطرة العادات والتقاليد المستمدة من عادات الهنادكة.. أما يلدرم فكان صاحب اتجاه رومانسي، فغلب هذا

على أدبه في وقت اتجه فيه بریم تشند (وهو أديب غير مسلم) إلى الواقعية، لكنه أساء فهم المجتمع المسلم، ولم يتعمق فيه وأخذ معظم أفكاره من بيئته الهندوكية ومما كان يسمعه من حكايات عن المسلمين تحكى بين الهنادكة.

مضى على طريق الاتجاه الرومنسي أدباء مثل نياز فتحبوري، ومجنون كوركه بوري، ول. أحمد، وحجاب امتياز علي، وقاضي عبد الغفور، ومن بعدهم الأديب الشهير ميرزا أديب. هذا، بينما اتجه إلى الأدب الواقعي أدباء من أمثال علي عباس حسيني، وأعظم كريوي، وأختر أورينوي، وسهيل عظيم أبادي. وبينما اتجه أدباء إلى كتابة القصة للمتعة فقط دون وضع هدف معين أمامهم، ويمكن تصنيف هؤلاء في خانة أصحاب مذهب «الفن للفن»، ومن هؤلاء: عاشق حسين بتالوي، وسيد عابد علي عابد، وفياض محمود خليقي دهلوي، وظفر واسطي، وآي رام نكري، ورئيس أحمد جعفري، وأبومحمد إمام الدين، وإيم سليم، وعابدي وغيرهم.. وتطور فن القصة القصيرة وانتشرت وزاد عدد قرائها..

وعودة إلى أوائل القرن العشرين.. فقد شهدت هذه الحقبة نهضة نسائية، وبدأت حركة تهدف إلى ترك العادات البالية، واشترك مع راشد الخيري شيخ عبد القادر وشيخ محمد إكرام، وصدرت من مدينة «دهلي» سنة ١٩٠٨م مجلة «عصمت»، وكان هدف شيخ محمد إكرام وراشد الخيري تعليم النساء، والحفاظ على حقوقهن داخل المجتمع، ومن العجيب أن يقوم راشد الخيري بكتابة عدة مقالات وبعض القصص القصيرة بأسماء وهمية لبعض النساء، مما أدى بدوره إلى

تشجيع المرأة على الدخول في ميدان كتابة القصة القصيرة، فظهرت أسماء فعلية لأدبيات جنباً إلى جنب مع أسماء الأدباء المشهورين على صفحات مجلة «عصمت».

ومن الضروري الإشارة إلى أن فن القصة القصيرة قد تأخر عن الرواية، فقد ظهر هذا الفن في أواخر القرن العشرين، كما ذكرنا في مجلات مثل «مخزن» و«زمانه» على يد سجاد حيدر يلدرم وراشد الخيري وسلطان حيدر جوش وغيرهم ممن يعدون رواد هذا النمط الأدبي، وفي هذه المدة شاركت المرأة في هذا الفن، وكانت الكتابات النسائية ذات طابع إصلاحية تبليغي. وبدأت الأدبيات يتخذن من القصة وسيلة لتحقيق أهداف إصلاحية، ومن بين الأدبيات اللاتي كتبن في هذا الفن: محمدي بيغم، وعباسي بيغم، ونذر سجاد حيدر، وطيبة بيغم، وبيغم شاه نواز، وصفري همايون مرزا. واتجهن في الغالب إلى كتابة الرواية بدلاً من القصة القصيرة، وركزن على تعليم المرأة وحقوق المرأة.

لم يكن الأديب (مولانا) راشد الخيري هو الوحيد الذي كتب بأسماء نسائية مستعارة ليشجع المرأة على دخول ميدان الأدب، فقد كتب فضل حق قريشي قصصاً قصيرة بتوقيع طاهرة بيغم شيرازي، وكتب نياز فتحبوري قصصاً باسم مريم زماني بيغم، وكان في قصص الأديبين روح الدعابة والشقاوة.. إلا أن الأدبيات: عباسي بيغم، وخاتون إكرام، وأمة الوحي، وراحت آرا بيغم، وشائسته اختر سهروري أخذن مكانتهن في مصاف الأدباء، وكانت أفكارهن في قصصهن أفكاراً نيرة، فقد انتمين إلى أسر فاضلة تهتم بالعلم والعلماء والأدب والأدباء، وكانت

لأسرهن مكانة عالية في المجتمع، وقد اتخذن قضايا المرأة موضوعاً وأبدعن قصصاً هادفة، وكانت خاتون أكرم من أشهر الأديبات اللاتي كتبن القصة القصيرة في مجلة «عصمت»، وكان ذلك بين سنة ١٩١٨م وسنة ١٩٣٤م، ومن أهم قصصها «انقلاب زمانه» ثورة العصر، و«بيكر وفا» مجسم الوفاء، و«بجھري بيتي» أي الابنة التي فارقتني. ونالت هذه الأديبة شهرة واسعة، ونشرت مجموعة قصصها تحت عنوان «كلستان خاتون»، وكانت خاتون أكرم أول أديبة تتال شرف الأديبة صاحبة أول كتاب ينشر ويتضمن مجموعة قصصها القصيرة.

وصدرت عدة مجلات فيما بعد.. من لكهنو مجلة نكار، ومن لاهور مجلة همايون ونيرنك خيال وأدبي دنيا، ومن دهلي ساقي وغيرها، وكان لهذه المجلات دور عظيم في تطور القصة القصيرة..

ثم كان عصر الترجمة..

زادت حركة ترجمة القصص القصيرة من اللغات الأجنبية إلى الأردنية، وكان لهذه الحركة أثرها في اطلاع كتاب القصة القصيرة على المستوى الفني الذي وصلت إليه القصة على المستوى العالمي، كما عرضت نماذج مختلفة من القصص. وممن قادوا حركة الترجمة وتزعموها: منصور أحمد، حامد علي خان، بروفيسور محمد مجيب، خواجه منظور حسين، ظفر علي خان، نياز فتحبوري، جليل أحمد قدوائتي، وعبد القادر سروري. ومن الجيل الجديد ظفر قريشي، وشاهد أحمد دهلوي، وصادق الخيري، وعطاء الله كليم، وفضل حق قريشي، وسعادت حسن منتو، وقد أسهم هؤلاء أيضاً في كتابة القصة الأردنية القصيرة.

وتعد سنة ١٩٢٦م منعطفًا مهمًا في تاريخ القصة القصيرة في الأدب الأردني، فقد تأسست جمعية المؤلفين التقدميين، وشكل أصحابها اتجاهًا أدبيًا أو مدرسة أدبية عرفت باسم «ترقي بسند تحريك» أي حركة الأدباء التقدميين، وأصدر هؤلاء مجموعة من القصص كانت بالنسبة للقراء غير مقبولة، نظرًا لما فيها من فحش وهجوم على الحضارة الهندوكية من جهة والحضارة الإسلامية من جهة، مما جعل الحكومة الهندية تلجأ إلى مصادرة هذه المجموعة القصصية؛ حفاظًا على الأمن العام، ولهذا نالت هذه المجموعة القصصية أهمية تاريخية برغم أنها كانت في معظمها قصصًا ضعيفة من الناحية الفنية.

يرى نقاد الأدب الأردني أن الحقبة التي أعقبت عام ١٩٢٦م هي الحقبة الذهبية للقصة القصيرة في الأدب الأردني؛ نظرًا لتأثير حركة الأدباء التقدميين، وقد ظهرت جماعة أخرى تسمى «حلقة أرباب ذوق»، وظهرت جماعة ثالثة روجت لفكرة الأدب من أجل المتعة أو الفن للفن، ومن هؤلاء عظيم بك تشغتائي، وشوكت تهانوي، وقد نالوا شهرة عظيمة. ومن الأدباء الذين اتجهوا لفن الدعابة والمزاح فرحت الله بيك ورشيد أحمد صديقي وشفيق الرحمن وبطرس بخاري.

كان اتجاه أدباء الحركة التقدمية يرمي إلى تطوير القصة على أسس واقعية، ونذكر من بين الأدباء النشطين حيات الله أنصاري، وعلي سردار جعفري، واحتشام حسين، وأختر حسين راثبوري، وقد تضمن أدبهم الصراع الطبقي في المجتمع كأساس. والحقيقة أن حركة الأدباء التقدميين قد نهلت من منبع الأدب الروسي إلا أنها اتجهت في مرحلة لاحقة إلى الأدباء الإنجليز، وخاصة عام ١٩٢٥م وما بعدها كما تأثروا من ناحية أخرى بكتاب الروايات الجنسية، حتى في الأدب الفرنسي.

وإذا وضعنا في أذهاننا الاعتبارات الفنية، فإن حيات الله أنصاري له مكانة من حيث الإبداع القصصي، ومن روائعه «آخري كوشش» المحاولة الأخيرة، و«أنهوكي مصيبت» المصيبة الفريدة، و«مان بيتا» الأم والابن، وغيرها.

أما سعادات حسن منتوفقد تربي في حضن القصة الروسية والفرنسية، ثم اتجه بعد ترجمته للعديد من القصص إلى الإبداع القصصي، فكتب قصصاً رائعة في موضوعات مختلفة لم يكتب فيها من قبل في فن القصة الأردنية القصيرة.. وهو عادة يصور العلاقة بين المرأة والرجل، وقد يجذب إليه القارئ، فيستغرق في القراءة، ثم ينتهي إلى الحيرة لا أكثر ويظل حائراً.. وقد كتب عدة قصص لم يتقبلها المجتمع، بل أدت به إلى قاعات المحاكم، إلا أن القضاء برأ ساحته من «تهمة الفحش».

ومن مشاهير الأدباء الذين تربوا في أحضان القصة الغربية القصيرة نذكر الأديب غلام عباس الذي كتب قصة بعنوان «الحمرا كافسانة» أي حكاية الحمراء، ونالت شهرة واسعة، ومن القصص التي تعبر عن اتجاهه الأدبي نذكر: «حمام مين» في الحمام، و«ناك كاتتوالا» أي جادع الأنف، و«نواب صاحبه كا بنكله» أي فيلا الهانم.

ومن الأدباء التقدميين نذكر خواجه أحمد عباس الذي كان ينشر الشيوعية من خلال قصصه، فكانت قصصه كـ «المانيفستو» أي كالمشور.

ومن الأدباء المعتدلين الذين نالوا الشهرة في عالم القصة القصيرة نذكر «ممتاز مفتي» وهو أديب لا يزال على قيد الحياة يهتم بالتحليل النفسي للإنسان، وبداخل الأديب شخصية سائح لا تكل من الحركة والمشاهدة والتدوين. أما غلام الثقلين، وجميلة هاشمي، وصادق حسين، وأحمد نديم قاسمي، فقد صوروا في قصصهم الريف في شبه القارة الهندية إلا أن لكل منهم صورة تصدر من زاوية مختلفة، ونشير هنا إلى أن غلام الثقلين نقوي عبر في قصصه الرائعة عن القيم الإنسانية من وجهة نظر رومانسية.

ولا يفوتنا أن نذكر أنه في تلك المدة وفي باكستان الشرقية سابقاً (بنغلاديش الآن) ظهر أدباء كتبوا بالأردية من أمثال أحمد زين الدين، وأم عمارة، وغلام محمد وأي خيام، وأحمد سعدي، وعلي حيدر ملك، وأيوب جوهر وغيرهم، فقدموا من خلال قصصهم القصيرة بالأردية المجتمع وقضاياها في منطقة البنغال.

وكما كان لعصر الترجمة أثره في الأدباء من الرجال، فقد كان له أيضاً أثره على الأديبات من النساء؛ نظراً لأن الاتجاه الرومانسي في القصة جذب إليه المرأة، واشتهر من أديبات تلك المدة حجاب إسماعيل التي عرفت فيما بعد باسم حجاب امتياز علي، ولا تزال تكتب قصصها التي تتميز بالإبداع والرومانسية، والأديبة الثانية مسز عبد القادر التي أعطت القصة الأردية مكانة وحددت لها اتجاهات واضحة، ويشير النقاد عادة إلى تأثرها بروايات «إدجار ألن بو» الرومانسية، وعنصر الرعب والخوف ظاهر في قصصها، ومن عناوينها، مثلاً «لاشون كا شهر» مدينة الجثث، و«صداء جرس» صلصلة

الجرس، و«راهبة» أي الراهبة، وقد برعت الأدبية في استخلاص نتائج مينافيزيقية رومانسية من الأحداث الواقعية، وأبدعت هذا الفن في الأردنية.

وكان لكتابات رشيد جهان أثرها في قصص وروايات أدبيات الأردنية: عصمت تشغتائي، وهاجرة مسرور، وخديجة مستور، وواجدة تبسم، وقد اشتهرت من بين هؤلاء الأدبية عصمت تشغتائي التي تناولت في أدبها موضوع الجنس؛ لتعبر عما يدور في المجتمع، وقد حملت ما يدور داخل الحجب إلى خارج الحجب وعرضته بلذة فكرية وجدت قبولاً أحياناً ورفضاً أحياناً، فالناقد عزيز أحمد يرى أن عصمت تشغتائي أدبية ذات اتجاهات مريضة، ويعود فيقول: لكن أحداً لا يمكنه أن ينكر قدرتها على البيان؟.

أما خديجة مسرور، وهاجرة مسرور فقد نحتا منحى الأدباء التقدميين، وحاولتا رؤية الحياة من خلال التعبير عن إحساسات المرأة الرقيقة وعواطفها، ووصلتا إلى درجة عالية من التعبير الفني من خلال عرض الصراع بين الخير والشر لإخراج صورة مؤثرة لعلاقات الصداقة الإنسانية.. وعبرت الكاتبة صديقة بيغم في قصصها عن ملامح الحياة الاجتماعية للأسرة المسلمة، بينما كتبت زينب سجاد قصصاً رائعة صورت فيها بيئة إمارة حيدر آباد الدكن بكل ملامحها الاجتماعية والسياسية، وعن طريق القصة قامت بتشريح المجتمع، ونجحت في ذلك إلى حد كبير.

ويرى النقاد أن عصمت تشغتائي هي الأدبية التي احتلت مكانة

ثابتة بين الأدباء التقدميين، بينما كانت بقية الأدبيات كالإراعات
يحلقتن.. بيرقن.. ثم ينتهين.

واتجه الأدباء قبل تقسيم شبه القارة الهندية إلى تصوير المجتمع
بكل تعقيداته وبكل مشكلاته.

ومن الأدباء الذين شاعت شهرتهم قبل التقسيم نذكر شوكت
صديقي، وقرّة العين حيدر، وخديجة مسرور، وهاجرة مسرور، وقدرت
الله شهاب، وبروين سرور، وآي حميد، وسيد أنور، وممتاز شيرين،
ومحمد أحسن فاروقي، وقاضي عبد الستار، وتسليم سليم تشهتاري.

بعد التقسيم برز أدباء إلى الصف الأول منهم إشفاق أحمد،
وانتظار حسين، وغلام الثقلين نقوي، وبانوقدسية، وإلطف فاطمة،
ونثار فاطمة، وخليل أحمد، وغيرهم.. اتجه إشفاق أحمد إلى تصوير
الواقعة الصغيرة في قصة؛ ليركز بها على هدف معين، وقد نالت
قصته «كدريا» أي الراعي شهرة كبيرة، ومن قصصه «توبة» أي التوبة،
و«تلاش» أي البحث، و«أمي»، و«شب خون» أي الغارة ليلاً.

أما انتظار حسين فقد ركز على الماضي؛ ليصل إلى الحاضر،
ثم يعود مرة أخرى إلى الماضي، وهو يستخدم الرمز وأسلوب الرواية
الأسطورية. وقد وفق من الناحية الفنية في العرض القصصي.

ومن الأدبيات نذكر فرخنده لودهي التي ركزت على الريف، فهي من
الريف وأقدامها متصلة بالأرض والفلاحة.. وقد قدمت إلى المدينة،
فجمعت بداخلها ألوان الحيرة والدهشة، ومن قصصها «شرابي» أي

السكير، و«معجزة» أي المعجزة.. هذا بينما ركزت الأدبية الطاف فاطمة على الجانب النفسي في شخصيات قصصها.

هناك مجموعة من الأدبيات لم ترتبط بجماعة الأدباء التقدميين نذكر منهن الأدبية القديرة قرة العين حيدر التي لا تزال تعطي الأدب الأردني من مداد قلمها ثروة أدبية عظيمة، وقد نالت شهرتها قبل التقسيم وبعده، وهاجرت إلى باكستان، ثم عادت مؤخرًا إلى الهند، ونالت أكبر الجوائز الأدبية في عموم الهند منذ شهر (نوفمبر ١٩٩٤م) ونشأت في بيت أدب وعلم، فوالدها هي الأدبية نذر سجاد حيدر ووالدها هو سجاد حيدر يلدرم، وكلاهما من كتاب القصة كما أشرنا.

حاولت قرة العين حيدر جمع أشواك الحياة في حضنها، وراحت تكتب عنها، وهي تشعر بالجراح، والألم الذي ابتلي به المجتمع الإنساني كله، وقد احتلت مكانة فريدة لما لها من حس ثقافي وحضاري واجتماعي وتاريخي.. ولا يزال فنها القصصي يرقى ويتطور حتى كتابة هذه السطور..

أما ممتاز شيرين فقد حاولت أن ترقى بالقصة الأردنية القصيرة إلى المستوى الغربي، وكتبت قصصًا رائعة مثل «كفارة»، وتمتاز قصصها بسلاسة البيان وروعة العرض. ويرى بعض النقاد أنها ربما تكون الأدبية الوحيدة من بين كتاب القصة التي لها إدراك عميق بالتجربة الفنية و«التكتيكية»، ولهذا نالت شرف كونها أول ناقد من نقاد القصة الأردنية.

بالإضافة إلى قرة العين حيدر وممتاز شيرين نذكر سحب قزلباش، وتسليم سليم جهتاري، وعائشة دراني، وشائسته أخت، وصالحة عابد حسين، وبروين سرور، وحميدة سلطاني، وزهرة جبين، وشفيق بانو، وسيدة أشرف وغيرهن، وبرغم أنهن لم يبلن اهتمام النقاد إلا أنهن نلن اهتمام القراء. فقد ظلت مثلاً قصص سحب قزلباش مدة تثير التساؤلات وتعال الاهتمام على صفحات صحيفة «جمنستان» في دهلي، ولا يزال صدى قصتها «أك كل رهي تهي» كانت النار مستعرة يسمع حتى اليوم. كما نشرت بعض قصصها في مجلة «آج كل». ومن قصصها «بهوكا هـ بنكال» أي البنغال الجائع، و«توت كيا ايک تاره» نجمة تحطمت.

وكتبت صالحة عابد روايات وقصصاً اجتماعية إنسانية، وعبرت بروين مسرور عن البربرية التي حدثت في أثناء التقسيم، كما عبرت أيضاً عن سقوط دهاكة، ولا تزال هذه الموضوعات ومثلها هي عصب قصصها.

في العقد السادس من القرن العشرين الميلادي مرت القصة الأردنية بمنعطف جديد اتجهت فيه إلى أسلوب التجريد والرمز، ويقال: إنه في سنة ١٩٥٨ م بعد تطبيق قانون الطوارئ بدأ أصحاب الأقلام في البحث عن طريق جديدة للتعبير عما بداخلهم، فاتجهوا إلى الرمز والاستعارة والتجريد في قصصهم، وساعدهم على هذا اكتمال فن القصة القصيرة واتجاه النقاد إلى الرغبة في مطالعة قصص من نوعية جديدة.. وقد كتب هذا النوع رشيد أمجد، بلراج منير، أنور سجاد، أحمد جاويد، قمر إحسان، علي حيدر ملك، سجاد نقزي،

وخالدة حسين، وكمارباشي يوسف تشودهري، ونيلم أحمد بشير، وشمس نعمان، وظفر إقبال، وأسد محمد خان، وزاهدة حنا التي تكتب في جريدة أردونيوز التي تصدر في المملكة العربية السعودية..

ومنذ سنة ١٩٨٠م، وما بعدها بدأ عصر الإبداع في فن القصة القصيرة في الأدب الأردني على يد أدباء كبار ورد ذكر بعضهم، ومنهم: ممتاز مفتي، وميرزا أديب، وأحمد نديم قاسم. وكذلك أنوار أحمد، ومرزا أطهر بيك، ومحمود أحمد قاضي، وعقيلة كاظمي، وكلزار جاويد.. كما حققت بعض الأدبيات شهرة واسعة ونذكر منهم: نيلوفر إقبال، نكهت سيما، عطية سيد، شمع خالد، فريدة حفيظ، شكيلة رفيق، رفعت مرتضى، وخالدة شفيق، ونسرين قريشي، وبروين عاطف، وسلمى ياسمين نجمي، وشمع خالد، وفرزانه رباب، وسلمى صديقي، وذكية بلكرامي وغيرهن كثيرات..

وتضم قائمة القصة القصيرة اليوم أسماء عديدة يصعب حصرها في الهند وباكستان، نذكر منهم هنا بالإضافة إلى من ذكرناهم في السطور السابقة على سبيل المثال لا الحصر: جميل أحمد آفاقي، آغا قزلباش، عرفان علي، إعجاز أحمد فاروقي، كلزار جاويد، ستار طاهر، ظفر حبيب، وغافر شهرزاد، وفاروق خالد، برزين عاطف، وسلمى أعوان، وعقيلة كاظمي، وغيرهم كثيرون..

obeikandi.com

الصدمة الثانية

للأديبة: زكية بلكرامي

الأديبة زكية بلكرامي تكتب القصة القصيرة وتعتبر بصدق عن روح الأدب النسائي، وهو أدب في معظمه هادف يعالج قضايا مهمة داخل المجتمع النسائي بصفة خاصة. وقصتها الصدمة الثانية فيها عبرة لكل فتاة وكل امرأة يغيرها جمالها ودلالها، فقد تعرضت بطلة القصة لصدمتين كانت الصدمة الأولى بلا شك أشد، فقد فقدت فيها أمها وأباها وإحدى رجليها، ومع هذا فقد تحملتها.. إلا أن الصدمة الثانية كانت من الشدة، بحيث لم تستطع أن تتحملها!

الصدمة الثانية :

كنت أعرف جيداً أنني على قدر كبير من الجمال.. بياض تخالطه حمرة وردية، جسم متناسق كله نشاط وحيوية، وشعر أسود فاحم مسترسل.. وكما تقول صديقاتي: كنت أبدو «حلوة جداً» حين أضحك.

كنت الابنة الوحيدة لأبوي وكان لي أخ يكبرني قليلاً، وكانوا جميعاً - أبي وأمي وأخي - يقومون على خدمتي ويفتدونني بأرواحهم، إذ

كانوا يرون أن من واجبه تلبية جميع مطالبتي وتحقيق رغباتي كلها والرضوخ لعنادي.. كان لنا بيت جميل، نعيش فيه حياة كلها راحة ودعة، فالله وهبنا كل شيء، وكان يجب علي أن أسجد لله شكرًا على نعمه هذه، وأن أسبح بحمد الله على ما وهبنا إياه، لكن سلوكي كان على عكس ما ينبغي، فقد ركبني شيطان الغرور والكبر، وفي نشوة الإحساس بالعظمة لم أكن أعمل حسابًا لأيّ كان، كنت أعتبر بجمالي وأشعر أنني فقت جميع نساء العالم جمالاً، حتى أنني كنت أجلس أمام المرأة وأتطلع إلى وجهي وأتخيل أميرًا وسيماً بهي الطلعة سيأتي من بلاد الحور، ويحملني معه ويطير، كان هذا هو السبب في أن أحداً من أبناء الأسرة لم يشد انتباهي، أو كما تقول نحن الفتيات: «لم يملأ عيني»، والأدهى من هذا أنني رحت أسخر منهم جميعاً، وكانت عماتي وخالاتي جميعهن يرغبن في أن يخطبنني لأحد أبنائهن، لكنني كنت دائماً - أمام أبي وأمي - أسخر من أبناء أقاربي سخريّة فاضحة: ماذا يعني لو صار «إعجاز» ابن عمتي طبيباً؟! قامتة قصيرة.. قزم كيف أقبله زوجاً؟! وابن خالتي «أسعد» صار مهندساً إلا أن لون بشرته أسود.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

لو حدث وتزوجته لصرنا معاً كالكشري المليء بالعدس.

أما ابن عمي «وقار» فقد حصل على الماجستير، ويعمل في وظيفة طبية، إنسان طيب إلا أن شعر رأسه قد اختفى ولو أن شكله مقبول إلا أن «صلعته» لا تعجبني.. وهكذا عارضت الارتباط بأي شاب من أسرتي، وحاولت أمي أكثر من مرة أن تفهمني:

«نائلة! يا بنيّتي، هذا أمر مشين أن تسخري من شكل وصوره كل إنسان من حولك وتعدّيه أقل منك، يجب أن تتوبي وتستغفري الله؛ حتى لا يفضب عليك بسبب غرورك هذا».

لكني كنت أسمع كلام أمي من «أذن» وأخرجه من «الأذن الأخرى»..

في الكلية عقدت صداقات مع بنات كل صنف، إلا أن كلاً منهن كان فيها عيب ما، فكنت أشير إلى هذا العيب بطريقة أو بأخرى وكانت البنات يحملن بداخلهن كراهية لي، ومع ذلك بقين على صداقاتهن لي، إذ كانت معظمهن يستفدن مني.. مثلاً لما كنت أخذ دروساً خصوصية، فقد كان عندي إجابات جميع الأسئلة، فكن يحصلن عليها مني، هذا بالإضافة إلى أنني كنت أنفق كثيراً من المال في مقصف الكلية، وكنت أغدق عليهن، وفي مقابل ذلك كن يتحملن غروري واعتدادي بنفسني، وحتى سخريتي منهن..

وهكذا حصلت ذات يوم على البكالوريوس، وأعلنت وقتها أنني لن أوصل دراستي أكثر من هذه المرحلة، وأقام والدي وليمة ضخمة بهذه المناسبة، دعا إليها جميع أفراد العائلة، وبعدها بدأت عروض طلب الزواج تنهال علي. وكانت العروض من الأقارب ومن غيرهم أيضاً، إلا أنني رفضت مناقشة هذا الأمر جملة وتفصيلاً.. ومرت الأيام، وكانت أمي قلقة جداً لأمرني، وعنفنتني ذات يوم فعارضتها، قائلة:

«يا أمي، لماذا تتسين أني جميلة؟! ومن حقي الزواج من رجل وسيم، وإذا كان كل رجل في هذه الدنيا يبحث عن فتاة جميلة أليس لي الحق أنا أيضاً في أن أفعل ذلك، وأبحث عمن يعجبني؟!.. فإذا رفض أهل الشاب أن يزوجه من فتاة قبيحة، ويرون من حقهم هذا الرفض، فلماذا لا تعيبن عليهم هذا الفعل؟ ولماذا أنا التي تتزوج من أصلع

أو قصير القامة أو أسود؟! لا يمكن.. إذا لم يكن في أي عيب، فلماذا أتزوج من فيه عيب؟ رجل أسود يتجراً ويطلب الزواج من فتاة جميلة.. تباً له.. على أمثاله اللعنة..».

أفرغت كل ما في قلبي ورحت أصب جام الغضب على أمثال هؤلاء الرجال، ولم تنطق أمني بشيء رداً على هذه الخطبة التي ألقيتها على سمعها، ومضت في صمت وتركتني..

وذات يوم اختاروا لأخي فتاة.. كان أخي يكبرني بسنوات، وكان والداي يرغبان في أن يكون زواجه بعد زواجي، إلا أنهم اضطروا إلى التفكير في طريقة أخرى بعد رفضي للزواج، وخطبت أمني له «نوشين» إحدى بنات صديقاتها القدامى، وقد التقيت بها وأعجبتني كثيراً، ولأن بين الأسرتين «معرفة» قديمة، فلم تكن هناك حاجة لتأخير الزواج، وهكذا وبسرعة أصبحت نوشين زوجة أخي وجاءت لتعيش معنا في بيتنا، وفي أيام قليلة اعتادت زوجة أخي عليّ، وعلى أهل بيتي، لكنني شعرت أنها لم تستحسن أفكارني ولم تعجبها عاداتي.. وذات يوم قالت لي بكل اتزان:

«نائلة.. يجب عليك أن تفكري في مستقبلك، وتتخذي قرارك بسرعة؛ كي لا يفلت الوقت من يدك ويمر قطار الزواج، فهو لا ينتظر طويلاً والرجل ليس بصورته، ولكنه بسيرته، ولا يعيبه شكله إذا كانت أخلاقه حميدة، فانظري بلا شك إلى تعليمه، وإلى أصله أي أسرته، أنا لا أقول لك: تزوجي من رجل قبيح الخلقة.. ولكن الطريقة التي ترفضين بها الزواج ممن تقدموا لك طريقة غير لائقة!».

«يا زوجة أخي.. أنا لا أريد أن أعيش حياتي على عكس ما أهوى وأريد، ثم لماذا أنت قلقة عليّ، وماذا يفيدك التفكير في حالي.. أمي وأبي لا يزالان على قيد الحياة وبخير، دعيك من هذا القلق واتركيه على كاهلها، فهما أحق بتحملة منك».

أصابها ردي بالامتعاض، فسكتت على مضمض..

كان جلوسي في البيت بعد ذلك مدعاة لأن يتغير مظهري فرحت أحيك ملبوساتي على مختلف أشكال «الموضة» ورحت أرتديها بحب ورغبة، وكان جميع شباب العائلة الذين رشحوا قبلاً للزواج مني قد تزوجوا، بينما صار أخي أبا لابن صغير...

مرت ثلاث سنوات على حصولي على البكالوريوس إلا أنني كنت - حتى ذلك الوقت - لا أزال واقفة في المكان نفسه على مفترق طريق الحياة.. ولم يأت حتى ذلك الوقت أمير أحلامي.. وهكذا راح الوقت يمضي والأيام تمر والعجيب أن يزداد غروري أكثر وأكثر، ويزداد شعوري بالتهالي على الآخرين.. وربما سبب لي عدم تقدم عريس وسيم يطلب يدي، شيئاً من الغضب بطريقة لا شعورية.. لا يهم فكم كان عمري؟! ثلاثة وعشرون، لم يكن هذا الأمر يصيبني باليأس، فقد كنت على يقين من أنني سأحصل على ما أتمناه: شاب وسيم يأتي إليّ يوماً ما، وسيرى العالم كله هذا، وسيقول الناس: زوجان كالشمس والقمر..

كانت الحياة بالنسبة لي جميلة رائعة.. لم يحدث أن تألمت أو أصابني ما يشعرنني بالحزن أو الأسى، لم أكن أعرف ماذا يعني

الحزن أو على أي شيء يطلق هذا الاسم، ولكن ذات يوم انتهى فجأة كل ما هو جميل في حياتي.

كنا في مشوار بالسيارة أنا وأبي وأمي.. وإذا بسيارة نقل ضخمة تصدمنا.. توفي أبي مع أمي في الحال، وتوفي السائق أيضاً ولم ينج من هذا الحادث الأليم سواي..

حين عدت إلى البيت بعد خروجي من المستشفى أدركت أن رجلي اليمنى قطعت، وتحت ذراعي اليمنى عدد من الغرز خاطوا بها جراحي، ورحت أتطلع إلى المرأة خائفة مرتعدة.. أه لم يحدث شيء لوجهي.. كان لا يزال على عهدي به جميلاً وكان شعري الأسود الطويل أيضاً كما هو.. أما أنا فلم أعد كما كنت.. صرت فتاة يتيمة معوقة..

ظل أخي وزوجته يحاولان مواساتي ويجبران بخاطري.. وجاءت العائلة كلها فرادى وجماعات لأداء واجب العزاء.. وانتهى الأمر لكن بالنسبة لكل من حولي، أما أنا فقد أظلمت الدنيا في وجهي.. فأمي التي لم أكن أفكر ولو للحظة أن تبعد عني قد ابتعدت عني إلى الأبد.

كان مولد طفل لأخي مدعاة لأن تشغل زوجة أخي أكثر فأكثر، فكانت كل بضعة أيام تذهب بالأطفال إلى بيت أسرتها، وأبقى أنا وحيدة في البيت، أدور حول نفسي، أقطع الوقت الذي صار يمر بطيئاً، لقد اعتادت زوجة أخي الذهاب إلى بيت أسرتها، لكن ذلك كان في وقت كانت أمي موجودة في البيت، وأبي أيضاً، فلم أكن وحدها أشعر بالوحدة، إلا أن الوضع مختلف الآن، فقد صارت الوحدة قدرتي.

توقعت على نفسي، وانتهت زيارات صديقاتي لي، فقد تزوجن.. ولم يعد لي صديقة واحدة.. تمرغ غروري وكبريائي الكاذب في التراب، كان الناس ينظرون إلي فيخافون ويرتعدون ويوجهون لي عبارات التعاطف والمواساة التي كانت تصل إلى قلبي، فتخزه كشوكة تدميه.. وراحت العجائز من عائلتي يثرثرن:

«لو كانت نائلة تزوجت من أحد أفراد العائلة لكان الجميع عوناً لها، لكن من يسأل عنها في حالتها هذه؟!».

كان شباب العائلة الذين رفضتهم قبلاً يبدون تعاطفاً تجاهي، كانوا يعيشون حياتهم العادية كما هم مع أهل بيتهم في اطمئنان وسعادة، بينما كان قلبي يدمع دماً.. أين راحت أيام السعادة؟! من سلبني اللحظات المليئة بالسرور والهناء؟! وصدقت زوجة أخي فيما قالته لي من قبل.. لقد أفلت الوقت من يدي وتركني القطار، ومضى دون انتظار.. وراح «عكازي» هذا يقلقها كلما تحركت هنا أو هناك، وكنت كلما تحركت ناحية الثلجة لأحضر الماء، أو كلما تحركت من غرفة لأخرى لأحضر شيئاً ما كان صوت عكازي، وهو يندق على الأرض يقلق الأطفال، فيستيقظون من نومهم.. كم من مرة قالت لي زوجة أخي:

«نائلة، اطلبي الماء أحضره لك.. الأطفال الصغار يستيقظون بسبب الإزعاج وإعادتهم إلى النوم ثانية أمر شاق».

كانت كلماتها سهاماً تصيب كبدي.. كان هذا صحيحاً.. كنت معوقة.. وكان صوت «عكازي». يسبب إزعاجاً للآخرين.. لكن ماذا

يمكن أن أفعل؟ وأين؟ بل كيف أخفي مكان رجلي التي قطعت؟ كنت أعرف أن علي أن أقضي بقية حياتي في هذا البيت، كان هذا أمراً مقررًا ومفهومًا لدى زوجة أخي، ولهذا كنت أسكت، ولا أرد ولو بحرف على ما تقوله، وتناسيت، بل أقلعت عن التفكير في كل ما كنت أرغب فيه وأتمناه، ومع هذا فقد كانت زوجة أخي دائمة الشكوى مني، وراحت أحياناً تذكرني بتقصيري وبأخطائي في الماضي، مما جعلني عصبية سريعة الغضب، وزاد هذا من ثم من توتري، وأما أخي فقد رزقه الله الكثير من الأولاد.. واحداً تلو الآخر مما جعله أكثر انشغالاً وانفعالاً أيضاً، وكانت زوجته تعرف أن أخي سيتحمل مسؤوليتي طوال العمر، ولم تكن هي على استعداد ذهني لتقبل هذه الفكرة..

ذات يوم، وبعد أن ذهبت زوجة أخي إلى بيت أهلها خرجت مستندة على «عكازي» إلى حديقة بيتنا.. حديقة جميلة برغم مساحتها الضيقة، تملؤها الورود الزاهرة من كل نوع، لكن ماذا حدث؟ ألوانها صارت في عيني باهتة، وعبيرها لم يعد له تأثيره السحري القديم الذي اعتدت عليه من قبل.. جلست على أحد الكراسي الموجودة بالحديقة ورحت أفكر في تلك الأيام التي مضت.. هل تعود؟! ومن بعيد شاهدت «جمال» أحد أقاربنا قادمًا، وجمال كان يكبرني بعدة سنوات، ولم يكن قد تزوج بعد.. لقد اقتربت الآن من الثلاثين ونظرًا لجمالتي الفتان كان من الصعب ملاحظة كبر السن في ملامحي..

كان جمال من ناحية الشكل والصورة إنساناً عادياً بوجه عام، وكان بطبيعته إنساناً شريفًا عزيزاً وابنًا مطيعاً لوالديه، وكان في زمن مضى يسرح شعره بالزيت، ويرتدي ملابس زاهية الألوان فضفاضة

لا يهتم بكيها أو ترتيبها ويروح يتجول هنا وهناك، لكنه الآن يرتدي ملابس يبدو منها هندامه واضحًا كما يلبس حذاءه الذي يلمع دائمًا؛ نظرًا لمسحه «بالورنيش» وبصفة عامة لم يحدث أن دار بيني وبينه أي حديث، لكنه وبعد مدة طويلة، وفي ذلك الوقت بالذات يأتي إلى بيتي.. وفي غير وجود زوجة أخي، فلم يكن هناك بدّ من الترحيب به..

جلس جمال على الكرسي المواجه لي، وسألته - وكالعادة - عن أحوال والديه وبعد حديث استمر مدة ليست بالطويلة إذا به يقول:

«نائلة! عندي لك كلام»..

«نعم، هل هناك شيء.. تفضل قل» قلت هذا بمنتهى الرزانة والاتزان.

«لا.. لا شيء بالتحديد، لكن لدي اقتراح»..

«أنا لا أفهم» ولم أفهم حقيقة ما قال.

«في الواقع إنني أتألم وأنا أراك هكذا وحيدة، وإنني قلق في معظم الأحيان من أجلك».

«أخي جمال.. هذا هو القدر المكتوب».

«نائلة! أود.. أعني.. أقصد أنني أريد طلب يدك.. ولا اعتراض

عندي على...».

سمعت كلام جمال، فشبت النار في جسدي، وسرت في عروقي، هذا الشخص الذي لم أكن حتى أميل إلى أن أبادله أي كلمة.. يأتي اليوم.. يعطف علي.. يطلب يدي، فقلت، وأنا أخفي غضبي بداخلي:

«أتدري ماذا تقول؟».

«نعم، نائلة» وصار أكثر حساسية وانفعالاً واستطرد، قائلاً:

«فكرت دائماً فيك.. أحببتك لكنني لم أجرؤ أبداً على الإفصاح بذلك، فقد اعتبرت نفسي غير جدير بك، وبعد هذه الحادثة أيضاً لم أجرؤ على التحدث إليك؛ لأن وظيفتي كانت متواضعة، أما الآن فقد رقيت إلى وظيفة أحسن، وتحسنت ظروف المادية، وأنت الآن وحيدة، ولذلك فقد جئت اليوم حاملاً آمياني الكامنة في قلبي منذ سنوات، فإن رضيت، وقبلت حدثت أمي في الأمر»..

يا لزماني!.. إنسان مسكين كالح الوجه يعطف علي، فيطلب يدي.. لم أدر كيف سيطرت على أعصابي، وكتمت غيظي وغضبي على غير العادة، فقلت له:

«أخي جمال! لا أود سماع هذا الكلام الفارغ، إنني أتعجب، بل أجدني في حيرة كيف واتتك هذه الجرأة.. من الأفضل على أي حال أن تغادر قبل أن تأتي زوجة أخي، وإلا فإن ما بي سيفيض، ولا يمكنني أن أتمالك أعصابي».

لم يكن جمال يتوقع أن يصدر عني هذا الرد، فنظر إلي دهشاً متحيراً، وقال:

«نائلة، فكري مرة أخرى.. كان في قلبي لك حب طاهر، ولا يزال، وسوف يبقى».

وتحاملت على نفسي، وأخذت «عكازي» واندفعت لأدخل البيت، وجعلني الغضب في حالة يرثى لها، ورأى جمال أنه ليس من اللائق أن يظل جالساً فنهض وعاد من حيث شاء.

في تلك الليلة رحمت أذرف الدمع غزيراً، هكذا كتب علي قدري، ورحمت أنال جزاء غروري، وأتجرع الألم علقماً، لم أكن قد فكرت أبداً في الوجه الآخر للحياة، لكن لماذا كل هذا يحدث لي، على وجه البسيطة آلاف وآلاف من الناس ارتكبوا أيضاً أخطاءً وأغلاطاً بطريقة أو بأخرى، ولم يأت يوم حسابهم أبداً، فلا يزالون ينعمون وينالون نصيبهم من السعادة ولا يزال حبل سعادتهم ممتداً، لكن حبل سعادتني انقطع فسقطت من علياء السماء إلى الدرك الأسفل من هذه الأرض، ثم إنني قرأت في الكتب: إن الله يبتلي عباده الصالحين وإنه ينعم عليهم برحمته بعد هذا البلاء، فهل أنا يا ترى من عباد الله الصالحين؟! هل أنا الآن في مرحلة البلاء والاختبار؟! ومتى تنزل علي رحمة الله؟!... بدأت هذه التساؤلات تدور في عقلي، وهي تساؤلات لم توجد لها إجابة واضحة عندي، ومضت أيام شعرت خلالها بأن حديثاً جاداً يدور بين أخي وزوجته يتعلق بالتأكيد بأمر يهمني؛ لأنني كنت كلما اقتربت منهما انقطعت سلسلة الحديث، لم تكن لدي رغبة بأي موضوع يتحدثان فيه، فقد كنت أعرف أن أمير أحلامي لن يأتي أبداً كما لم أكن أبداً على استعداد - ذهنياً - لقبول شخص مثل جمال، فقررت من داخلي قراراً لا رجعة فيه، وهو أن أعيش حياتي وحيدة، فلا ضرورة مطلقاً

للزواج، وكمن من الفتيات يقضين حياتهن هكذا من دون زواج فلاكن واحدة منهن.. إلا أن جميع أفكارني ونظرياتني وقراراتني ذابت، بعد أن أجلسني أخي، وحضرت زوجته بالقرب منه، ثم قال:

«نائلة! لقد رتبنا لك أمرًا من أجل مستقبل طيب، وكان الله معنا وأعاننا على هذا الأمر.. «نعيم» إنسان طيب، فهل لديك اعتراض على قبول الزواج منه؟».

لفني صمت أخرجني منه ما قالتة زوجة أخي:

«نعيم ابن عمي إنسان شريف عزيز، كما أنه رأيك مرة أيضاً..».

رفعت ناظري تجاه زوجة أخي، كانت في نظراتني إليها تساؤلات تموج في صمت.. فنهضت واقتربت مني وجلست بجوارني، ثم راحت تربت على ظهري، قائلة:

«لا تقلقي نعيم يعرف مأساتك، أنت من ناحية الشكل والصورة جميلة.. وافقي على مقابلته».

«لكن يا زوجة أخي.. لا بد أن يكون هناك سبب ما يجعله يقبل الزواج من فتاة معوقة مثلي...» وكان نطقي بكلمة فتاة قد جعلني أتلعثم فسكت، ولم أكمل عبارتي، فعاجلتني زوجة أخي بقولها:

«لا تقلقي نفسك، ولا تفكري بشيء فقط قابليه...».

«لا.. أريد أولاً معرفة أصل الحكاية.. ماذا قلت له؟».

راح أخي وزوجته يتطلعان إلى بعضهما، وكأنهما يحاولان إخفاء أمر ما لا يريدان أي داع لإخفائه وعدم الإفصاح عنه.. فقلت:

«يا زوجة أخي.. يجب أن تكون الأمور واضحة تمامًا.. أنا لست بهذا الضعف، ثم إن الزواج ليس بالأمر الضروري أيضاً».

«الزواج أمر ضروري جداً يا نائلة.. أنت لا تدريين حالة أخيك، وكم هو قلق من أجلك!».

«لهذا رحتم تبحثون لي عن أمثال نعيم.. لكن على أي شرط! إذا لم تخبراني بالحقيقة، فلن أستمع لكما» قلت هذا وحملت «عكازي» وشرعت أترك المكان إلا أن أخي استوقفني، قائلاً:

«اجلسي يا نائلة.. سأخبرك.. ما سأقوله لك صحيح مئة بالمئة.. نعيم إنسان شريف له محل تجاري، تعيش معه أمه وأختاه، وهو مسؤول عن إعالتهن، وحدث أن تعرض متجره للسرقة، وهو الآن في ضائقة مالية شديدة، وهو لم يتزوج حتى الآن، كانت أمه تبحث له عن فتاة، ثم حدث ما حدث لمتجره، فتوقف التفكير في مسألة زواجه، لكنه إذا وجد عوناً مالياً وتحسن وضعه التجاري والمالي، فلن يكون هناك أي مانع في التفكير في مسألة الزواج من جديد.. نائلة لا حرج ولا مضايقة في هذا الأمر، سوف نساعد مادياً فتتحسن أوضاعه التجارية، وأنت سوف تذهبين، وتعيشين في بيت رجل شريف».

«هكذا الأمر.. جعلتموني سلعة تقيمونها في البورصة» وتحطمت بداخلي أشياء، فقلت وأنا أحاول إخفاء ما بداخلي من مشاعر:

«كم المبلغ الذي اتفقتم عليه؟».

«سوف نعطيه بمئتي ألف».

وقالت زوجة أخي بسرعة:

«هذا هو المبلغ الموجود في حساب المرحوم الوالد».

«اسمعي يا زوجة أخي.. أنا لا أوافق على هذا الزواج».

«لكن لماذا...؟».

«أنتم تبيعونني بمئتي ألف روبية.. هذا هو قدر محبتكم لي؟ أنا لست سلعة تباع بمال، ولن أسمح لأن أكون كذلك وزواجي لن يكون لقاء أي مبلغ مهما كان».

«نائلة! لا تأخذي الأمر بهذه الحساسية الشديدة». قال أخي هذا وهو يحاول إفهامي:

«نعيم رجل شريف لن يجلب لك سوى السعادة على الدوام».

«أخي على الأقل أنت لا تكرهني إلى هذه الدرجة، فلا تجعلني لا أرى أمامي سوى الموت».

اغرورقت عيناى بالدموع، واستراح أخي لرفض هذا الزواج إلا أن معاملة زوجته لي تغيرت منذ ذلك اليوم، كانت دائماً تتدح في حقي، قاعدة قائمة، زاهبة عائدة، ولم يكن أمامي من سبيل إلا الصمت..

وبعد مدة عرفت أن نعيماً تزوج من أرملة غنية، وأنهما يعيشان حياة هادئة مطمئنة، ولم يكن لهذه الأخبار أي أثر يذكر في نفسي، وخاصة حين كانت زوجة أخي تعتمد إلى سرد حكاياتهما أمامي.

في تلك الأيام سافر أخي إلى ألمانيا مدة سنة، وكانت زوجته تقضي معظم وقتها في بيت أهلها وفي بيتنا في الركن الخاص بالخدم قدمت أسرة: لتقييم فيه، فاطمأنت زوجة أخي، إذ لم أكن وحيدة في البيت.. لكن الوحدة كانت قدرتي المكتوب، لم يكن لدي سوى ذكريات الأيام الخوالي أجترها بين حين وآخر.. ماذا كنت؟ وكيف صرت إلى ما أنا فيه؟!.. الظلمة من حولي، أبحث عن شعاع من نور وسط الظلمة الحالكة.. فلا أجد.. لكن.. فجأة.. وجدت أشعة النور تتجمع.. وتتقشع سحب الظلام!

في ذلك اليوم وكعادتها دائماً أخذت زوجة أخي الأولاد، وذهبت إلى بيت أهلها، وكعادتي أخذت «عكازي» واتجهت إلى حديقة البيت، ورحت أتفحص تلك الورود التي كانت بالنسبة لي حياتي واهتماماتي.. وإذا بي أرفع نظري إلى البيت المقابل لبيتنا.. فتحت نافذة في الطابق العلوي.. وخلفها وقف رجل غريب عن الحي، بدا وكأنه يحلق من بعيد في السماء، وشاهدت السحب، وكأنها تغطي وجهه حيناً، وتكشف عنه حيناً آخر.. كنت أعرف أن بعض الناس قد استأجروا هذا البيت منذ أيام، لكنني لم أعرف عنهم شيئاً على الإطلاق..

نعم كان هذا الوجه الذي طالما تصورته في مخيلتي وطالما تخيلته في أحلامي، كان هذا وجه الأمير القادم من موطن الحور الذي طالما

حلمت بالتحليق معه في السماوات.. انتابتني الحيرة ولفنتي الدهشة.. هل يصل الخيال في العالم إلى هذه الدرجة، فأرى ما أتخيله هكذا أمامي في النافذة؟!

لكن الأمور تتغير مع الأيام، لم أعد أنا التي كنت.. ولعله أيضاً وجد بغيته.. وغرقت في بحر الحيرة، وأنا أطيل النظر ناحيته حتى وقع نظره علي، بينما كنت أقف متكئة على «عكازي» وشعري الطويل ينساب على كتفي يصل إلى أردافي، على وجهه الحزين ارتسمت علامات الحيرة للمحة، ثم ارتسمت فجأة على شفثيه ابتسامة ساحرة.. فتراجع عن النافذة، أما أنا فعدت إلى داخل البيت أحاول أن أتمالك قلبي المضطرب الذي تسارعت دقاته.

رحت أفكر مدة في هذا الأمير الغريب، لكن ذهني اضطرب.. كم تمنيت أن أعرف عنه شيئاً.

في اليوم المقبل رحلت أطيل النظر مرات ومرات ناحية النافذة، لكنني لم أرَ أحداً وعندها أدركت حماقتي.. كيف يظهر في النهار؟ لكنني كنت كمجنونة تنظر ناحية النافذة، وحين جاء المساء شاهدته خلف النافذة.. كانت عيناه لا تتجهان ناحية السحاب في السماء، بل كانت تتجه نحوي.. راح ينظر إلي.. في نظراته شوق وهيام.. بدا لي مختلفاً عن بقية البشر.. على وجهه ارتسمت براءة الملائكة وازدادت دقات قلبي، لم أستطع الوقوف طويلاً في الحديقة، فتحاملت على عكازي، ودخلت البيت.

بدأت لعبة «الاستغماية» هذه بيننا في صمت، لم أكن أعرف عنه شيئاً، وأعتقد أنه أيضاً لم يكن يعرف عني أي شيء، وبرغم هذا شعرت وكأنني قابلته منذ سنوات طوال.. كان يسكن في قلبي، وكان هو من تصورته في أحلامي، وبدأت أهتم بملابسي وبمظهري، وخاصة وقت المساء رحت أخرج ثيابي التي خزنت في «دولاب» الملابس مدة طويلة أردت أن أزين بها جسمي.. فقد كنت أشعر أنه ينتظرني كل مساء، وكانت أزهار السرور تتفتح فوق وجهه الحزين إذا ما رأني أخرج إلى الحديقة.. لكن لماذا هذا الحزن المرتم على وجهه دائماً؟ لماذا يبدو الألم على وجه هذا الرجل الجميل؟ لم أدر حقيقة الأمر إلا أن السعادة عرفت طريقها إلي في تلك الأيام، وصارت الحياة جميلة في عيني، وعادت البهجة إلى روحي.. وحين رجعت زوجة أخي من بيت أهلها توقفت عن الخروج إلى الحديقة في المساء من باب الاحتياط والحذر.

ومرت عدة أيام لم أره فيها، لم أكن أدري هل ينتظرني على أحر من الجمر أم لا.. لكنني بنفسني كنت متوترة أتوق شوقاً إليه.

لم أعد أتبادل الحديث مع زوجة أخي إلا نادراً، خاصة بعد أن رفضت الزواج من نعيم قريبها، فقد أثر هذا فيها، وكان جرحاً في صدرها سيستمر على ما يبدو طول العمر. على كل حال، وفي ذلك اليوم دقت باب بيتنا فتاة جميلة جاءت من البيت المقابل لبيتنا؛ بهدف التعرف إلينا، فجلست زوجة أخي معنا، كان اسمها «روبي» وكانت جميلة جداً عمرها على أكثر تقدير عشرون عاماً، ذكرني شكلها بالأيام الماضية، حين كنت في مثل عمرها، أخبرتنا أنها انتهت من توها من امتحان البكالوريوس، وبدأت الإجازة، ولهذا فكرت في زيارتنا للتعرف علينا.

عرفت كل شيء عن جيراننا من روبي، فهي تعيش مع أخيها الأكبر «نديم» الذي فقد زوجته في أثناء وضعها طفلها الثاني، وكان لهذه الحادثة وقعها السيئ على روبي ونديم، والآن عمر بلال ثلاث سنوات وبلغ الطفل عامه الأول.. عرفت من روبي أيضاً أن أخاها نديم لم يخرج من هذا الحزن أبداً..

سمعت أحوال هؤلاء الناس وحزنت كثيراً، إذ عرفت سر الحزن الواضح على وجه نديم... بعد أن أدت زوجة أخي واجب الضيافة لروبي، وراحت تتحدث معها مدة، ثم تركتنا وذهبت، وإذا بروبي تقول لي:

«يا أختاه، إنك جميلة جداً، كنت أراك من النافذة، أعجبت بك كثيراً، وأخي أيضاً يمتدحك كثيراً.. معذرة فربما كان هو أيضاً يشاهدك من النافذة».

سمعت كلام روبي، فراح قلبي يخفق ويدق بسرعة، وراحت تذكر لي مدى إعجاب أخيها بي، ولم تقل شيئاً غير ذلك، ووعدت بأن تزورنا ثانية.

جاءت روبي ثانية، كان معها بلال والطفل، كانا ما شاء الله جميلين، حملت الطفل إلى صدري، فالتصق بي في حنان، وبرغم أن بلالاً كان في الثالثة من عمره إلا أنه قليل الكلام، فقد جعلته وفاة الأم المبكرة من النوع الذي لا يتكلم كثيراً.. راحت روبي في ذلك اليوم تختلق الأسباب؛ لتمتدح أخيها: وسامته.. ذكاه.. أحاديثه عن الحياة السعيدة، ثم قالت:

«يا ليت هناك من تأخذ بزمامه، فتحول حزنه إلى مسرات..».

بعد ذهابها بقيت ساعات أفكر في نديم وبلال والطفل، كانت زوجة أخي تجلس معنا أحياناً، ثم تتركنا وتذهب، وقامت روبي بطريقة لا شعورية بالتقريب بيني وبين نديم، كانت تحدثني أحاديث لا حصر لها عن نديم، ولم أكن أدري ماذا كانت تقول عني لنديم، فقد أخبرتي أنها تحدثه عني.

وفي يوم من الأيام حملت «ألبوم» الصور الخاص بهم، وجاءت كعادتها لزيارتنا، لم تكن زوجة أخي في البيت آنذاك شاهدت كل الصور: صورة والديها وصورة زوجة نديم رحمة الله عليها.. كانت امرأة جميلة، لكنها لم تكن بمثل جمالي وشاهدت صوراً كثيرة لنديم.. شخصية جذابة.. طلعة بهية وعيناه تشعان بالذكاء.. كان هو النموذج الذي أتمناه في فتى أحلامي، كان وجهه هو الوجه الذي طالما حلمت بصاحبه، لقد وهبني الله قرباً ممن كنت أحلم به.. وفهمت جيداً مرام روبي والهدف من كلامها معي، فقد كانت تود أن أقترن بأخيها، وأن أمنح ولديه الحب والعاطفة، وذلك لأن موعد زواج روبي نفسها قد تحدد، وبعد ذهابها من البيت لن يكون هناك من يرعى بلالاً والطفل الصغير.. وقبلت هذه الصفقة التي تمت في صمت ودون إعلان.. قبلتها وتمنيتها من كل قلبي، فنديم لم يكن لديه أي اعتراض على «عكازي» هذا، ولماذا لا أشرف على رعاية أولاده؟! كان نديم ثرياً وله مكانته في المجتمع، يملك مصنعاً يديره بنفسه، لم يكن ينقصه شيء من أمور الحياة ومستلزماتها.. وشعرت أن هذا من حسن حظي.. أن تأتي إلى بيتي المحبة والثروة والجمال...

لكني كنت أريد تطبيقاً عملياً لكل هذه الأفكار، فلم أكن قادرة على أن أفصح عما في داخلي.. وحين تأكدت روبي أنني لن أرفض أباها زوجاً لي تحدثت مع زوجة أخي، وأحضرت معها صورة لنديم.

لم أعرف ما دار من حديث بين روبي وزوجة أخي، لكن بعد ذهاب روبي جاءتني زوجة أخي:

«نائلة! اليوم بلغتك روبي رسالة أخيها، هؤلاء الناس يريدون عقد الزواج فوراً، لكني رأيت أنه ليس من المناسب إعطاؤهم الرد الآن، فأخوك ليس هنا وهو الذي يمكنه اتخاذ القرار».

«يا زوجة أخي، أنا لست طفلة» هكذا كان ردي عليها فوراً، بل تابعت كلامي:

«فأنا بنفسني أستطيع أن أتخذ قراراً يتعلق بي».

سمعت زوجة أخي حديثي، ونظرت إلي بتهكم، وقالت:

«نائلة! إنك تعديني عدوة لك بينما كنت دائماً – واللّه شاهد على ما أقول – حريصة على سعادتك، كان في زواجك من نعيم سعادتك لكنك رفضت، وهو الآن يعيش مع زوجته حياة نموذجية، ونعيم لم يكن على الأقل متزوجاً من قبل ولم يكن له أولاد».

وفار الدم بداخلي:

«لم يكن بلا شك متزوجاً، لكنه كان إنساناً قبيح الخلق، وأنت تعرفين أنني أفضل في هذه الدنيا كل جميل».

«لم يكن قبيح الخلقة يا نائلة..» نطقت هذه العبارة بلهجة فيها عنف شديد «لك أن تقولي ما تشائين.. كان قبيح الصورة وطماعاً.. كان يريد أن يشتري عجزي مقابل مئتي ألف روبية».

«هذا هو تفكيرك يا نائلة.. على كل حال أنا أقوم بواجبي.. لن أقول شيئاً ضد رغبة أخيك».

«لا، بالله عليك يا زوجة أخي.. لن تفعلي هذا.. لن ترفضني زواجي من نديم.. لو كان عنده أولاد، فهو رجل جميل الوجه جذاب.. لقد رأيت صورته» ولم أخبرها أنني كنت أشاهده عدة أيام.

«إذاً هذا يعني أنك اتخذت قرارك».

«نعم، افهمي الأمر هكذا».

«إذاً اذهبي، وأنهى أمر زواجك بنفسك، لن أتدخل في هذا الأمر».

قالت هذا، ونهضت من جانبي، وبقيت أبكي مدة طويلة، ورأت زوجة أخي عيني الحمراءتين، فقالت:

«حاولي أن تفهمي الأمر، إنه يتحدث في أمر الزواج السريع يريد أن يتم الزواج خلال أسبوع، وفي صمت دون احتفال، فكيف لي أن أتحمل هذه المسؤولية، بينما أخوك غير موجود هنا؟!».

«لا تتحملي هذه المسؤولية أبداً يا امرأة أخي.. أنا مستعدة لتحمل هذه المسؤولية.. سوف أتحمل مسؤولية أي أمر سيئ قد يحدث.. فقط أتمنى أن تتعظي علي وتكرمي بالموافقة.. فقط كلمة واحدة.. نعم».

تراجعت زوجة أخي أمام إلحاحي، فأبلغت روبي بالموافقة، وتحدد يوم الخميس المقبل للزواج..

وبدا الأمر عجيَّباً بالنسبة لي.. الحلم الذي رأيتَه طوال حياتي يتحقق.. يصبح حقيقة بعد أن كان خيالاً.. وأمير بلاد الحور سيصبح من نصيبي.. الأمير الذي أعجب بي برغم عجزتي برغم عكازي، ثم إنني فتحت أبواب قلبي لولديه، وبدأت أشعر بحب جارف تجاههما، شعرت كأنهما ولداي، ولداي من رحمي، كانا يظلان بجوارتي ساعات، فأضمهما إلى صدري أطفئ بهما ظمأ قلبي.. وكانت السعادة تغمر روبي في تلك الأيام، فراحت تسمعي حكايات السعادة التي تغمر نديماً أخاها.. فقد كانت تقوم بعمل الوسيط بيننا..

لا ينبغي أن أنتظر أكثر من هذا.. وحل يوم الخميس السعيد.. اشترك في عقد القران بعض الأقارب وبعض أهل الحي.. جعلوا مني عروساً بحق -وكما قال الناس- كان جمالي فتاناً، وكان عرسي عرضاً لجمال الحوريات.. وجليت في «الكوشة» مدة، ثم صعدت لأجلس على الكرسي المعد لي بجوار نديم بين باقات الورد.. التقطوا لنا الكثير من الصور التذكارية، وفي أثناء ذلك سمعت عبارة:

«القمر مع الشمس لكن..»

وقرأت الفاتحة على مآتم عقلية الناس الذين لا يعرفون كيف يتفاضون عن مواطن العجز لدى الآخرين.. ماذا لوفقدت رجلي اليمنى.. وماذا لوكانت لنديم زوجة سابقة توفأها الله.. وماذا لو كان عنده طفلان..

انتقلت بعد ذلك إلى غرفتي، فتناولت طعامي، ولما كان ذهابي إلى بيت العريس لن يكلفني الكثير، إذ سأنتقل إلى البيت المقابل لبيتنا، لهذا لم يكن الأمر مقلقاً أو متعباً بالنسبة لي، فقد انتقلت ماشية من بيتنا إلى بيته مع روبي وزوجة أخي.. مشينا بخطوات وثيدة، أمسكت روبي وزوجة أخي «بفستان الفرح» أقصد ثوب الزفاف.. ثم تركتني زوجة أخي في غرفة نديم، وذهبت..

تحدثت معي روبي مدة، ثم أغلقت الباب، وذهبت هي الأخرى..

رفعت عيني أنظر إلى الغرفة التي أجلس فيها.. كم كانت رائعة.. الأثاث الفخم.. آه هذه الستائر الجميلة.. كم هي جميلة هذه الغرفة.. غرفتي تتوسطها السجادة الكشميرية الرائعة بنقوشها المنمنمة الدقيقة، ثم الزخرفة التي زينت الجدران.. عشت لحظة سحرية ورحت أغبط نفسي على ما أنا فيه من سعادة وحظ.

وجاء نديم..

فأخفيت وجهي بين ركبتي.. إلا أنني وجدت نفسي أرفع وجهي على الفور..! لقد وصل إلى أذني وقع دقات عكازين، فأذهلني ذلك.. ونظرت فرأيت تحت إبطي نديم عكازين، وهو يقف أمامي برجليه الاصطناعيتين..!!

كانت الصدمة الأولى صدمة شديدة بالتأكيد، فقدت فيها أمي وأبي وفقدت فيها رجلي اليمنى.. لكنها كانت برغم ذلك صدمة تحملتها.. أما الصدمة الثانية، فقد كانت من الشدة، بحيث ربما لا يمكنني تحملها...

أعرف أن روبي كانت ستتزوج خلال أيام، وستذهب، وأني سوف أقضي بقية عمري في بيت إنسان حسن الطلعة عاجز.. ناقص الأعضاء.. أرعى أطفاله..

أين ذهب الحب الذي ملأ قلبي لبلال والطفل؟!؟

لماذا لم أعد أشعر بجمال طلعة نديم؟!؟

لماذا صارت الدنيا فجأة قبيحة في نظري؟!؟

راحت هذه الأسئلة، وعديد من الأسئلة الأخرى تدور، وتدور في ذهني.. لكنني لم أجد جواباً لأي منها، فقد اضطرب عقلي وأحاطتني الظلمة من كل جانب، ورحت أغرق في بحر من الظلمات سحيق!!

س

أيه أذهب؟!

للأديب: ظفر حبيب

الأديب ظفر حبيب من الأدباء المعاصرين، وتمتاز كتابته بالسهولة والإمتاع، وهو من مدرسة الأدب للحياة، فهو يعبر بما يكتبه عن قضايا المجتمع، ويصور الصراع الذي يختلج بداخل المسلمين في شبه القارة الهندية الباكستانية بأسلوب الرمز فيه أكثر تعبيراً عن الحقيقة، وفي قصته أين أذهب يوضح مدى تسامح المسلمين مع جيرانهم من غير المسلمين، ويصور ببراعة ما قد يتعرض له المسلمون يومياً في الهند من جراء التعصب الهندوسي، ويثير في نهاية قصته تساؤلاً يستحق الاهتمام بعد أن شعر باستحالة التعايش مع مثل هؤلاء الجيران.. وتساءل: أين أذهب؟!

فالقصة حكاية مؤلمة للفتنة الطائفية...

أين أذهب؟!

نهضت زوجتي التي كانت تجلس على الكرسي منذ مدة وراحت تتفرج من فتحة طاق في الجدار على ما يجري في الشارع، وفجأة انطلقت صرخة عالية، ثم جلست، وأسندت رأسها إلى راحة يديها...

منذ أيام وهي في كآبة، وقد أصابها الوهن، لم تكن تنال نصيبها من النوم الهادئ طوال الليل، وكنت طوال الوقت أراقب حالتها تلك، فاعتقدت أنها سقطت من على الكرسي، وفقدت الوعي، فنهضت من السرير بسرعة.. وقبل أن أرفع قدمي لأخطو أول خطوة رأيتها تترك رأسها التي كانت قد أسندتها إلى راحة يديها وثبتت الكرسي وتجلس عليه.. فتنهدت وقلت في نفسي:

«حسناً.. مر أمر ما حدث اليوم بسلام».

ولهذا عدت لأتمدد فوق السرير، وبدأت استكمال قراءة مقال بعنوان «مسألة تحقيق الأمن في العالم» كان المقال طويلاً إلى حد ما، وكنت قد استغرقت في قراءته حين حدث ما حدث من مداخله، فاضطرب العقل مدة، والعقل عادة يمضي على وتيرة واحدة إذا لم يعكس صفوه أحد ما، لهذا رحلت أرتب أفكاري من جديد، وبدأت أحاول جاهداً أن أغرق في دنيا هذا المقال.. إلا أن الأولاد من بعد أمهم راحوا يحيلون بيني وبين تنظيم أفكاري، والحقيقة أنهم سمعوا صرخة أمهم، ورأوها تمسك برأسها وتجلس، فتجمعوا من حولها واحداً بعد الآخر، وراحوا يمطرونها بالأسئلة.

ولم يكن أمر إقلاق الأطفال لي سهلاً.. فوددت أن تنهض زوجتي من هذا المكان وتذهب إلى مكان آخر؛ لأتمكن من إكمال هذا المقال الذي لم أكمله.. لهذا كنت أحياناً أود أن أزجر الأطفال، وأنهرهم عما يفعلون، كما كنت أود أحياناً أخرى أن أنصح زوجتي، ولكن الضرورة في ذلك الوقت كانت تستلزم أن أشحذ همهم جميعاً وأن ألقنهم درس الهمة والشجاعة..

يقع بيتي تماماً على ناصية شارع المدينة المشهور باسم «دين ديال أباديها رود» الشارع نفسه الذي كان يسمى قبلاً «جامع مسجد رود» فبعد الاستقلال بعشرين سنة تغير اسم الشارع ورغم وجود المسجد الجامع فيه... وكان هذا السؤال في محله.. لماذا كانت هناك ضرورة لتغيير اسم الشارع؟ وهل تغيير الاسم يدل على تغيير الإحساس الذهني أو الفكري، ومن ثم الإحساس التاريخي؟...! على جانبي هذا الطريق عاش سنوات وسنوات أناس من كل فرقة وكل طائفة، ومن كل مذهب ومن كل عقيدة، ويتجه الشارع ناحية الجنوب، وعلى ناصيته يقع المسجد، وحول المسجد يوجد حي يقطنه أتباع هذا المسجد، وفي هذا الحي يوجد بيتي.

بعد تغيير اسم هذا الشارع بعدة أشهر جاء إلى الناحية الشمالية منه أسرة من جماعة السيخ وسكنت هناك، وربما كان قرارهم بالإقامة هنا يرجع إلى أن الناس في هذه المنطقة يجنحون إلى السلم، ويعشقون الأمن والهدوء، وتغيير الاسم لن يؤدي إلى حدوث شغب أو إثارة ضجة أو فتنة... في مختلف أنحاء البلاد، وفي أوقات مختلفة حدثت اضطرابات ووقع شغب من كل نوع، لكن هذا الجو الساخن المشحون بالكراهية لم يتمكن من الوصول إلى ديارنا، ومع أن الناس مختلف والمزاج فيما يتعلق بما يقرؤون وما يكتبون وما يأكلون وما يشربون إلا أن روح التصادم لم تتمكن من الوصول إليهم، فكل شيء هنا يمضي بطريقة صحيحة... هذا الحي يطلق عليه في المدينة اسم «بوش كالوني» والناس الذين يقطنونه هم جميعاً ممن يجلسون على كراسي لها قيمتها في مكتب أو إدارة، أو أنهم من التجار النشيطين، والنساء هنا في هذا الحي مشغولات في قضاء أوقاتهم، يتبادلن الأحاديث عن (موضة)

الملابس، وبخاصة «الساري» وأحجام «التليفزيونات» المختلفة وألوان السيارات والدراجات البخارية وزخرفة المباني، وكل ما هو جديد في عالم المفروشات وغيرها.. ثم يناقشن بعد ذلك هذه الموضوعات مع أزواجهن، وخلال المناقشة يعرضن مطالبهن.. كانت هذه هي الهواية المفضلة لديهن.. أما طبيعة الأطفال هنا فتختلف عما هي عليه عند بقية أطفال الدنيا: في الصباح طاولة الدروس، وفي المساء الجري في الشوارع، والحديث عن الموضة الجديدة، وصور المجلات ثم في أيام الإجازة الذهاب إلى النزهة أو السفر بقصد السياحة..

ثم كانت هذه الحادثة التي جاءت من سمت الغيب.. فأحرق روضة السرور بأكملها، كانت حادثة عادية جداً بالنسبة لأهل الحي، لكنها بالنسبة لزوجتي حادثة عجيبة بصفة خاصة، كانت تصر على أن نخرج من هذا المكان حين يخف حظر التجول، كان اليوم هو الرابع منذ أن فرض حظر التجول، وفرض هذا الحظر من الصباح حتى المساء، ومن المساء حتى الصباح بشكل متواصل، وعم السكون، وخيم الهدوء على كل مكان وصار النهار كالليل مفرغاً وشنيعاً يتخلله صوت الأذان أحياناً وأحياناً أخرى صوت إطلاق العيارات النارية أو الانفجارات.. كانت هذه الأصوات المتميزة في نوعها رفيقنا وجلسنا منذ أربعة أيام.. وكلما توقفت هذه الأصوات راحت زوجتي تكرر إصرارها بأن تغادر هذا الحي.

حاولت باستمرار إفهامها أن ما يجري هنا ليس موجهاً ضدها، لكنها لم تكن على استعداد لقبول تفسيري بأن ما يدور ليس موجهاً ضدها، كانت فقط تقول:

«إن ما حدث حدث مرة، ويمكن أن يتوالى حدوثه مرات ومرات وإذا كان ما حدث قد أصاب بيوت الآخرين، فيمكن أن يصيب بيتنا أيضاً.»
وسألتها:

«أي مكان ذلك الذي يمكن أن نصل إليه، فتجد الأمن والهدوء؟! إن البلاد كلها الآن فريسة في قبضة الفتنة والفوضى، قد تختلف الأسباب هنا وهناك إلا أن نوعية الفتنة واحدة، فالأسلحة هي لغة العصر الحاضر، وأصوات هذه اللغة الانفجارات ونغماتها تعزف في كل لحظة نعمة الأجل، والجنس البشري كله يدخل دائرة اختيار هذا العفريت.»

فإذا بها تقول:

«إن من تدمر بيوتهم وتخرّب اليوم سوف يفكرون غداً في ارتكاب الشيء نفسه ولكن أليس من الممكن أن يفكروا اليوم في هذا؟».

أردت أن أفهمها أنه لا يوجد أي مكان آمن يمكن اللجوء إليه، وهذه المسألة لا يحلها تغيير السكن، بل حلها يكون بتغيير العقلية، والعقلية التي أمكنها أن تعبر المسافة بين «مسجد رود» و«أبادهيا رود» يمكنها أن تقوم بمراجعة ما يدور.. فتدل هؤلاء المتناحرين على طهارة «مسجد رود».. لكن كلامي لم يعجبها، فراحت تقول:

«سوف تظل طوال العمر تتحدث عن تغيير العقلية وتغيير الذهن، بينما النار تشتعل في هذا البيت حيناً، وفي ذاك البيت حيناً آخر.»

وبرغم الموافقة على مصداقية ردها إلا أنني بقيت غير موفق في تغيير طريقة تفكيري، أي أن التغيير الذهني هو الحل الأمثل لجميع القضايا، فإذا تمتع الذهن بالصلاحية، وإذا ما عمَّ الحب بين الناس، انتهت جميع الاضطرابات والفتن.. فالأمن في الأصل ضرورة إنسانية والقتال لا يمكن أن يطول، بينما الأمن يمكن أن يستمر ويستتب..

كان ما حدث منعطفاً جديداً لما كان يدور بيننا من حديث منذ عدة أيام، كان صرخة جديدة أحالت بيتي إلى بوتقة من الغضب، وأشعلت لهيب النزاع والعراك بداخله، فقد أصيب أطفال الصغار بالخوف والرهبة، وراحوا يسألون أمهم دون توقف عما رأته، بينما رححت أنا أحاول للمرة الثانية أن أقرأ عن «قضية قيام الأمن في العالم» إذ هي ضرورة من أشد ضرورات الوقت الراهن، ومن ناحية أخرى بقيت زوجتي.. لم تتحرك من مكانها قيد أنملة، ولم تتطرق بحرف، فاضطرت إلى القيام والتوجه إليها؛ لأسألها عما حدث:

«ماذا رأيت من طاق الجدار..؟».

لم تتكلم في البداية وبعد إلحاح مني، قالت: إن الناس الذين يسكنون في البيت المقابل لبيتنا، قام جيرانهم باقتحام بيتهم، وقاموا بجرجرة ابنتهم البالغة من العمر أربع عشرة سنة، وأخرجوها من البيت (وراحوا يهتكون عرضها).

بدا لي كلامها متناقضاً غير مترابط، فرحت أستفسر منها عن حقيقة ما حدث وقلت لها: إن هؤلاء الناس ينتمون إلى طائفة واحدة

وحياتهم المعيشية واحدة، حتى تجارتهم أيضاً، وبينهم صداقة متينة والطفلة دائماً تتادي عليهم، تقول يا أعمامي، ويا أخوالي، لا بد أن نظرك أخطأ وتخيلت عيناك أشياء... إلا أن زوجتي قاطعتني وأعدت على سمعي ما قالته من قبل، وأصرت على أن ما رأيته وقع فعلاً، وأن نظرها بخير والحمد لله، ومع هذا سألتها سؤالاً آخر يتعلق بالسلاح الذي استخدم مع الفتاة، فأصرت على قولها وقالت: شاهدت هذا السلاح في يد هؤلاء الناس الذين تظن أن وجودهم يعني وجود الأمن والذي تظن أن وجودهم يعني أنك في مأمن كامل.

في تلك الأثناء تنأى إلى سمعنا صوت صفارة الإنذار، فاندفعت إلى طاق الحائط أنظر وأستكشف بنفسى حقيقة الأمر، وفعلاً شاهدت بأم رأسي الطفلة البريئة ذات الأربعة عشر ربيعاً التي تسكن في البيت المواجه لبيتنا، وهي ممددة ترتعد وسط الشارع.. وبقيت أشاهد ما يدور.. جاءت عدة سيارات شرطة وتوقفت ونزل منها أناس يرتدون أزياء مختلفة، تدل على أنهم ينتمون إلى جهات مختلفة، دخلوا البيت المقابل لبيتنا وراحوا يسحبون جثث الموتى من جيراننا، ويجمعونها على جانب الطريق، ثم بدؤوا يطرقون باب جيراننا الآخرين الذين تحدثت عنهم زوجتي، وراحوا يوجهون إليهم بعض الأسئلة ووقفت أشاهد من طاق الجدار هذه التمثيلية المفزعة الرهيبة.. شاهدت هؤلاء الجيران يشيرون إلى ناحية بيتي، وفجأة بدأ جرس الباب يدق، فخرجت.. بدأ هؤلاء الناس يحيطون بي، وراحوا يبحثون عن بقع دم على ملابسي.. واقتحم بعضهم بيتي، فارتعدت وفوضت أمري، وأمر بيتي لله وحده، وعاد هؤلاء الناس دون أن يجدوا ما يبحثون عنه،

وتجمعوا حولي... وأمامي كان أولئك الناس الذين اعتاد أولادهم على الذهاب إلى المدرسة مع أولادي والذين كانت تربط زوجاتهم بزوجتي علاقات حميمة، راحوا يقولون للمفتشين في آن واحد ويشيرون مؤكدين إلى وجود بقع دم على ملابسي.. أصابني الذهول.. رحمت أتحدث عن نفسي أخبرهم بأنني معلم ومربٍّ فاضل للنشء وأديب أكتب الروايات والقصص.. وكنت غارقاً في القراءة قبل أن أسمع صفارة الإنذار.. لكن الأصابع كلها راحت تشير إلي..

بدأت عملية اعتقالني تأخذ حيز التنفيذ، وبدأت لهجة خشنة تظهر في صوت المفتشين، وفجأة دبت الحركة في جسد الفتاة الجميلة البريئة التي خيم عليها قبلاً سكون رهيب مدة، شاهدها المفتشون، فساعدوها على الجلوس، ثم قدموا لها كوباً من الماء لم تكد قطرات الماء تبلل حلقها الجاف حتى بدا الارتعاش على لسانها، وبدأت تنطق.. قالت: إن جميع أهل بيتها قتلوا بخناجر هؤلاء الجيران الذين يشيرون بأصابعهم.. وقالت عني وعن أهلي: إننا طيبون شرفاء وإنها تعرضت لما تعرضت له من قبل هؤلاء الجيران الذين كانوا يشيرون إلي.. وقبل أن تكمل الفتاة كلماتها وجدتني أضمرها إلي.. وانفجرت باكياً.. شعرت، وكأنها ابنتي التي تعرضت لهذا العمل الوحشي.. وانحدر رأس الفتاة البريئة ليستقر بين أحضاني، وبدأت أفكر: هل الأمان موجود حقاً في حيننا.. في حي «بوش كالوني» وفي شارع «بادهيا رود» أعني شارع «جامع مسجد رود» سابقاً؟!.

شعاع الشمس الأخير

للأديب: غافر شهزاد

غافر شهزاد من الأدباء الشبان الذين يحملون فوق أكتافهم هموم الشيوخ، في رأسه عدة عيون، ويمكن أن يرى الجهات الأربع دون أن يدير رأسه، ويمكن أن يشعر بالحقائق دون أن يراها، وقصة شعاع الشمس الأخير برغم أنها تبدو قصة تتعلق بالضرورات الإنسانية إلا أنها على مستوى آخر توضح الانتقام الرباني.

والقصة حكاية التقطها الأديب من أحد شوارع مدينة لاهور الباكستانية ووضعها في سيارة أجرة، ووصل بها حتى «عقب» باب البيت، وهي مأساة.. لكن مأساة من؟ هل هي مأساة الكاتب؟ هل هي مأساة القارئ؟ أم مأساتي أنا المترجم، أم هي مأساة المجتمع كله؟ لا بد أن المؤلف برع في سبك هذه القصة القصيرة، فتأثيرها يظل في ذهن القارئ مدة طويلة.

شعاع الشمس الأخير:

دار مع منحني الشارع، واستقام «التاكسي» ومضى يقطع الشارع بسرعة، كان يمضي بسرعة، وهو يتطلع إلى مدى البصر، لكن وعلى البعد لم يلمح أي «زبون».

كان الوقت قبيل العصر، الساعة الثالثة والنصف، وفي شهر يونيه عادة ما تكون الشمس على ارتفاع ذراع وربع الذراع إلا أنها اليوم تبدو، وقد تدنت أكثر من هذا، وصار من الصعب أن يفتح الإنسان عينيه لينظر أمامه وسط هذه الحرارة المحرقة، توقف عند الإشارة الحمراء، فرأى على بعد أقدام بعض الأطفال، نظر إلى هؤلاء الأطفال الذين ارتدوا ملابس غطتها الوساخة والقاذورات من فوق صدورهم، ومضى خلف «أمجي» كان «أمجي» ولده الوحيد، اسمه أمجد، لكنه حين بدأ النطق في طفولته كان يقول لأمه: «أمجي» وهكذا لصق به هذا الاسم «أمجي».

رقد أمجي في الفراش منذ خمسة أيام، وخلال الأيام الخمسة تلك مد والده قدميه أكثر من قدر لحافه، وعالجه من المرض الذي ألمَّ به، لكن الطفل كان مصاباً بالحمى التي لم تتركه أبداً، وكانت الحرارة إذا ما خفت شدتها قليلاً مدة بسيطة فتح أمجي عينيه، فتعود الحياة والبريق إلى عيني أمه وأبيه.. أضعفت حمى الأيام الخمسة أمجد، جعلته كالقشّة، لم يكن بصحة جيدة قبلاً، لكنه برغم هذا كان يجري ويمرح هنا وهناك، وكان يحيل البيت إلى بهجة وسرور بشقاوته، ولكن منذ الأيام الخمسة الماضية بدا البيت، وكأنّ ثعباناً لدغه، لفه صمت رهيب لدرجة أن صوت أنفاس أمجد كانت تسمع واضحة.. وعمت الكآبة، وران الصمت على جدران البيت، وحتى على أبوابه، وكأنّ عفاريت الغابة حلت به وسكنته، وخلال الأيام الخمسة فقد الوالد كل طاقة بداخله، ووسط هذا الاضطراب والقلق ونظراً لمشاغله ليل نهار لم يتمكن من الخروج بالتاكسي، ولو مرة واحدة.. ذات يوم أخذ التاكسي وخرج، وقبل أن يصل إلى الشارع العمومي دق قلبه وازدادت دقاته، ولم يتمكن من المضي لأمتار، فعاد بالتاكسي وأوقفه ثانية بجوار بيته.. كما كان.

اليوم هو اليوم الخامس، خلا جيبه تماماً من النقود.. لم يبق معه ولا روبية ليشتري الدواء الذي كتبه له الطبيب، تشجع وخرج بالتاكسي، في ذلك الوقت كان «أمجي» في حالة نصف إغماء، أو ربما كان نائمًا، لكن كان هناك نوع من الاطمئنان، فأنفاسه ما زالت تتردد بداخله.. في ذلك الوقت كانت الطيور تأوي إلى أعشاشها وتحتمي بعضها بأوراق الشجر.. تشجع وقاد التاكسي إلى الشارع العمومي.. كانت الكلمات المطمئنة التي قالتها «أم أمجي» قد تراءت له حروفًا أمام عينيه، لكن في هذا الجوالحار لم يكن في الإمكان وجود «زبون» يركب التاكسي.. في ذلك الوقت تمنى أن يجد راكبًا يذهب به خارج المدينة إلى مدينة أخرى، حتى يحصل منه على أجره معقولة، وحين راودته هذه الفكرة حول اتجاه التاكسي ناحية طريق المطار، لم يكن يدري هل هناك طائرات قادمة أم لا..؟ لكنه عقد الأمل على هذه الفكرة، ففي لحظات اليأس القاتل يتصرف الإنسان هكذا..

عبر «جسر شيرباؤ» ودخل منطقة «الكامب» القريبة من المطار، وحين اتجه إلى الشارع المقابل، وقعت عيناه من بعيد على صبي راح يشير إليه بعد أن رأى التاكسي، وساوره الشك أولاً، لكنه حين أوقف التاكسي وعاد إلى الخلف رأى صبيًا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، يجري بسرعة..

لقد كان يأمل في وجود زبون يأخذه إلى خارج المدينة؛ لينال منه مبلغًا كبيرًا، لكن هذا الصبي! لم يدر كيف تراجع عن فكرة الذهاب إلى المطار، وفي لمحة أو أخرى وصل الصبي، كادت أنفاسه تتقطع وبلله العرق كأنه خارج من حمام، ومن كلماته المتقطعة نتيجة تلاحق

أنفاسه فهم منه أن الدم خرج من فم أخته وأنفها، ولم ينقطع حتى الآن، ويود الذهاب بها إلى مستشفى الشيخ زايد..

كان مستشفى الشيخ زايد على بعد كيلومترات.. ماذا سيعطيه هؤلاء الناس؟ عشرون.. ثلاثون روبية، لكن دواء ابنه أمجي يحتاج إلى أكثر من هذا المبلغ، وقبل أن يضغط على «دواسة البنزين» لينطلق بالتاكسي نظر إلى الصبي، فطوقته سلاسل المسكنة المرسومة على وجه الصبي، فلم يتمكن من الحركة.. ولم يتمكن من الانطلاق إلى المطار..

البنات التي كانت في الغالب أخت هذا الصبي كانت في حالة سيئة.. كان الدم يندفع من فمها وأنفها دون توقف وبسرعة، فأركب البنات وأمها في المقعد الخلفي وهرول الصبي إلى المقعد الأمامي، ثبت عداد التاكسي وانطلق، عبر جسر شيرباؤ، ووصل إلى طريق السجن، وبدلاً من أن يمضي مع الشارع الموازي للنهر (وهو الطريق الأسرع) وجد نفسه دون أن يدري ينحرف إلى الاتجاه المعاكس، وفي مدة بسيطة كان شارع القائد الأعظم.

انشغلت الأم بمحاولاتها مسح الدماء المتدفقة من أنف ابنتها بقطعة من القماش، كانت على يقين من أن الصبي الجالس في المقعد الأمامي لا يعرف الطريق إلى مستشفى الشيخ زايد، وأمام بيت المحافظ وحين عرج على منطقة «شادمان» نظر في المرأة للخلف ليطمئن على أن السيدة لا تنظر إليه.. إلا أنه سمع الصبي يقول له: عمي، أسرع قليلاً يا عمي، فالدماء تسيل بسرعة، من فضلك يا عمي،

أسرع.. ومن شادمان وصل إلى طريق «فيروز بور» ثم اتجه إلى طريق النهر.

كانت السيارة تتطلق بأقصى سرعة إلا أن أم الفتاة لم تتمكن من الشعور بمسافة الذهاب التي طالت، مرة كانت تود أن تقول شيئاً، لكن وجهها اتجه إلى عيني الفتاة المفتوحتين نصف فتحة وراحت تنادي عليها وراحت تصرخ وتصيح: «افتحي عينيك.. افتحي عينيك» لكن في تلك اللحظات كان التاكسي قد خلف وراءه المدينة الجامعية وانطلق من شارع النهر إلى طريق الوحدة، حيث يقع مستشفى الشيخ زايد.. وحين توقف التاكسي أمام «عنبر» الإسعاف كانت الفتاة في نصف غيبوبة ولكن السائق كان ينظر إلى عداد التاكسي: خمسة وثلاثون كيلومتراً، أي مئة وستون روبية.. حملت الفتاة إلى حجرة الإسعاف، أعطت السيدة السائق عنواناً وأرسلت معه الصبي وأخبرته بأن يحضر والده بأسرع ما يمكن من المكتب ويأتي به وأخبرته أيضاً: أن يقول له بأن يعمل حسابه على ترتيب نقل الدم، فلا بد أن البنت ستحتاج إلى نقل دم بعد كل ما حدث.

لقد مشى التاكسي مسافة لإحضار والد الفتاة وترتيب كمية الدم المطلوبة جعلت الاطمئنان بيدوعلى سائق التاكسي، وهو يقف في نهاية المطاف أمام «عنبر» الإسعاف.. كان الدخان منتشرًا في كل مكان، وكان صوت المؤذن لصلاة العصر يسمع من بعيد، ورؤية الطريق وسط هذا الدخان الكثيف متعذرة، ومع هذا اتجه إلى الشارع المؤدي إلى بيته وانطلق بأقصى سرعة.. وفي الطريق لم يدر من أين اشترى الدواء، اكتشف ذلك فقط حين أوقف التاكسي في شارع واسع وراح

يهزول بنفسه متجهاً إلى حارة باتساع ثلاثة أذرع، وبعدها بأمطار كان أمام البيت، وكان قد تعود أن يوقف التاكسي خلف الحارة المواجهة لبيته، لكنه شعر أن ذلك سيستغرق منه وقتاً أكثر.. كان يود أن يوفر دقيقة، وحتى لحظة.. فالمسافة بين الشارع الواسع والحارة الضيقة تستغرق فقط ثلاث أو أربع دقائق.

حين فتح باب البيت وجد البيت كله، وقد لفه الدخان، ولم يدر من أين جاء كل هذا الدخان، ووسط الدخان وقعت عيناه على وجه زوجته، ثم على أمجد الذي كان راقداً وعلى وجهه مسحة من الاطمئنان، وبجواره تراءت له تلك الفتاة ترقد على السرير المجاور، كان السرير ملطخاً بالدم الأحمر القاني، بينما قطرات الدماء تتساقط واحدة تلو الأخرى على الأرض، وجاءت سحابة من دخان، فحمل الاثنين معاً في حضنه.. ومن بعيد تنهى إلى سمعه صوت الأذان.. ولحظة من بعد أخرى لفت الظلمة كل شيء.

شوكة في بستانك الجديد

للأديبة: عقيلة كاظمي

إذا كانت الأديبة عصمت تشغتائي قد عبرت في قصصها المليئة بالأسرار عن المشاعر الجياشة للشباب في تفتح براعمه الأولى، وكذا عن ثورة هذه المشاعر، فإن الأديبة عقيلة كاظمي قد مزجت في قصصها بين الصراع الداخلي لأفراد الأسرة داخل البيت الواحد من ناحية وخارجه من ناحية أخرى، فهي تشعر - وشعورها صحيح - أن القرارات التي تصدر عن العواطف كثيرًا ما تشعل نيران الفتنة والفساد في ساحات البيوت، وهي نيران إذا ما اشتعلت، فلن تتطفئ.

ومن هنا كتبت عقيلة كاظمي قصصها القصيرة؛ لتعبر عن حياة الأسرة بأكملها، بدلاً من عرض الصور الفردية للمرأة، كما فعلت عصمت تشغتائي. وقصتها «شوكة في بستانك الجديد» تعبر عن الصراع العاطفي داخل أسرة حطت عليها الثروة فجأة، وتعكس بعدها النتائج المفزعة والشنيعية التي تظل في ذاكرتنا على الدوام.

شوكة في بستانك الجديد :

كانت سعدية أختي الشقيقة؛ لذا فأنا أعرفها وأفهمها جيداً، وكانت بحكم كونها الصغرى في البيت محببة مدللة من الجميع، فارقت الأم الدنيا، ولما تكمل سعدية عامها الأول، فأعطاها الأب من رعايته وحبه ما حاول به أن يعوضها عن فقدان الأم، لكن ربما لا يمكن للآباء أن يعوضوا فقدان الأمهات مهما فعلوا... فالأمهات مهما كن، فهن يعوضن احتياجاتهن بفيضانات من المحبة لا نهاية لها.

ولم تكد سعدية تصل إلى الصف الرابع في المدرسة حتى حرمت من ظل أبيها، فواجهت زوجة الأب، وكان من خير الجميع أن الله لم يرزقها «بالخلفة» من ناحية، ومن ناحية أخرى أنها كانت ابنة خالة أبنينا، فكان قلبها مملوءاً بالحب والرحمة، وهكذا تربت سعدية في حضن «ناصره بيغم» وكانت أحياناً تتال ضرباً وتأنبياً منها.

عشق الجميع شكل سعدية الساذج، عينيها الزرقاوين، ولون بشرتها الفاتح وشعرها الأسود الفاحم المجعد^(*)، وقدها الممشوق، ولما كانت نحيفة القوام فقد بدت للجميع كأنها «عروس دمية».. كانت تدور في الحوارية شعلة من النشاط، تعشق اللعب، تقلد هذا وذاك، وهي تقفز هنا وهناك.

أما عن حكاية تحفيظها القرآن الكريم، فهي حكاية لا تنسى.. حدثت مشكلات لا حصر لها.. يا إلهي، فبينما يأتي «الفقيه» الذي يقوم

(*) الشعر المجعد رمز للجمال في شبه القارة الهندية.

على تحفيظها القرآن تغيب سعدية، ويبدأ الصياح والصراخ للبحث عنها، ويجري أطفال الحي هنا وهناك يبحثون عن سعدية، ولكن لا أثر لها.. وهكذا كانت تغيب عن الدرس عدة مرات في الأسبوع الواحد. وفي نحو سنتين مرت أيامها طويلة. ختمت سعدية القرآن الكريم، وكان هذا الفخر من نصيب ناصرة بيغم التي علمتها الصلاة والصوم، وكل ما يتعلق بالتربية الدينية بكل معانيها..

وظلت سعدية تتدلل على الجميع، في الصباح تنهض من نومها دائماً متأخرة، يعلو الصراخ ويستمر دقائق، تمر كالساعات، وسعدية تغلق «أذنًا من طين وأخرى من عجين»، وفي وقت الذهاب إلى المدرسة تنهض قبلها بعشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، فتغسل يديها ووجهها وكأنها تعبت بالماء بيديها وتمشط شعر رأسها من أعلاه فقط، ثم ترتدي زي المدرسة وتنتقل من البيت.. لكن كان هناك شيء واحد، فبرغم كل هذه الفوضى فيها إلا أنها كانت تبدو لكل من ينظر إليها نظيفة طاهرة، وكانت بطبيعتها سريعة البديهة ذكية تلتقط كل ما يتعلق «بالموضة»: فهي تطيل أظافرها، وتأخذ المقص من البيت وتقتصر شعرها، ثم تعقسه وتنزل بعض الشعيرات على جبهتها، فيزيد هذا من جاذبيتها، ويبرز ملامح شقاوتها.. كم من مرة أنبتتها المدرسات على هذا ولكنها لم تتراجع..

ومرت الأيام وكبرت سعدية.. صارت شابة ناضرة، وبدا في عينيها الزرقاوين مزيد من اللعان، ومزيد من العمق، وزاد اهتمامها «بالموضة» أكثر فأكثر، وكم كانت تود أن تزيد من اهتمامها، ولكن ما باليد حيلة، لم يكن لديها السبيل إلى هذا لضيق ذات اليد، فبعد وفاة

الوالد عمل الأخوان.. كل واحد في وظيفة على قدر حاله. وكانا يقاسيان شظف العيش، إلا أن أحدهما ظل يتلقى تعليمه، بالإضافة إلى وظيفته. زاهد الذي أحب سعدية حباً لا حد له، كان إذا أحضر طعاماً للبيت سلمه لسعدية، وكان إذا أراد المزاح أو الضحك ضحك مع سعدية، المهم أن تمييزاً وتفضيلاً حدث بين الأختين في البيت الواحد.. نعم الأخ الأكبر شاهد غير متحيز لأحد منهما، كان «درويشا» يعيش في حاله إلا أنه كان يحسن السلوك مع الجميع على حد سواء ولهذا لم يحدث أن اشتكى منه أحد أبداً.

كانت سعدية ذكية شقية، وكما تقول ناصرة بيغم عنها دائماً: «إنك تراها أمامك وفي لمحة تنشق الأرض وتبتلعها» أما أختها شاذية فهي «بنت دوغري» على طول لا تعرف اللف والدوران، وهي دائماً موضع نقد سعدية، كانت شاذية تمضي طوال يومها غارقة في الكتب، تنتحي جانباً ويلفه الصمت، وهكذا تعيش حياتها، لكنها في نظر أهل بيتها فتاة حمقاء من الدرجة الأولى، لا وزن لرأي تقوله، بل تؤمر بالسكوت قبل أن تتطرق بلفظ واحد.. لكن الوضع بالنسبة لسعدية مختلف فهي مقبولة لدى الجميع، ربما لأنها دائماً تتولى أعمال المنزل ولديها شوق ورغبة في الحياكة وأشغال الإبرة والتطريز.. لا شك في أنها بالنسبة للدراسة حصلت على درجات متدنية في امتحانات الثانوية، ومع هذا فقد فرحت كثيراً، إذ وجدت ذريعة للتخلص من الذهاب إلى المدرسة.. لا كتاب ولا مجلة ولا جريدة! فلم يكن لديها اهتمام بمثل هذه الأشياء.

اعتاد معظم ابن جيراننا أن يأتي إلى بيتنا، كان على درجة عالية من الذكاء، كثيراً ما كان يستغل سعدية مداعباً إياها، كما كان يقوم

بمساعدة ابنة خالته بدفعها على الأرجوحة إلى أقصى ارتفاع يمكن أن تصل إليه، كانت ابنة خالته صديقة لسعدية وأمينة أسرارها، فكانت تحكي لها قصصاً عن «معظم» تثير غضب سعدية إلا أن سعدية كانت تتحمل قولها وتكتم غيظها، ولا تبيح به لفاطمة.

في البيت وقع يدهم على خطاب لسعدية، لكن أحداً لم يناقش الأمر، «إنها طفلة» قالوا هذا لإغلاق ملف الحديث عن هذا الموضوع، وكان هذا من حسن حظها، وإلا فأسرة سعدية محافظة جداً، ولا تتهاون في مثل هذه الأمور، كما أن سعدية من ناحية أخرى لم تكن مثل البنات اللاتي يجعلن من الحب الأول مرضاً يعيشن به طوال حياتهن، أو من البنات اللاتي يهوين ذرف الدموع على ما فات، فهي من النوع القائل: «إذا لم يوجد الآن فليكن فيما بعد وإلا فليكن بعد ذلك»... وحدث أن ولد في بيت الأخت الكبرى طفل، ثم توفي على الأثر، وذهبت سعدية إلى أختها في كراتشي، وهناك مال قلبها إلى ابن عمها «برويز»، وكان برويز شاباً عاطفياً حساساً، في طبيعته شيء قليل من الجنون، وكان إذا رأى سعدية الشقية المرحة تنظر إليه حاول التفاني في استمالتها، فعمد إلى التعرّيج على بيت أختها كل يوم، واستمر في محاولته.. كان والده من الأثرياء الكبار، ومع هذا فقد كان يتصرف تجاه سعدية كخادم مسكين؛ ليدخل السرور إلى قلبها، بينما كانت سعدية تمطره بعبارات المزاح والدعابة الممزوجة أحياناً بالسخرية: «إيه يا برويز، لماذا تتأخر هنا كثيراً؟ يا «دلوعة البيت»، اذهب، هيا، سيضربك أبوك» ويظل برويز المسكين جالساً يفور من الغيظ، وعيناه تقدحان بالشرر، وأحياناً يثور، ويقول:

«والله.. انظري يا أختاه - موجهاً حديثه إلى الأخت الكبرى - كيف تسخر مني سعيدية، على كل حال أدعو الله أن يعطيني الثروة والمال وأن أكون مدلاً؛ حتى يمكن لسعيدية أن تسخر مني حقاً».

وتقاطعه سعيدية: «لا، لا، لماذا.. أحور الكلام.. اذهب.. اجلس في حضن أمك وأبيك، من هنا يهتم بمثل هؤلاء الناس؟».

تحضرت سعيدية كقطعة شرسة، فأصابت برويز بإحساس ساوره كأنها تقول له: أمثالك كثيرون، ولكنها في الوقت نفسه غيرت طريقتها وسقته من عينيها كأس المحبة... وكانت هكذا دائماً مرة تمنحه نظرة من عينيها، ومرة تناوله منديلاً أو «أزرار» قميص، ومرة أخرى تعد له بيدها فتجان شاي ساخن، وتقدم له بعض الرقائق المقلية.. وذات يوم وضع برويز في إصبع سعيدية خاتماً من الفضة، وضعه في إصبعها وهو غارق في مشاعر عاطفية جياشة، وقبلت سعيدية الخاتم، وهي تظهر له تدلاً شديداً.. فوعدها برويز، قائلاً: إنه سيحطم حواجز الثروة، وسيعلن العصيان وسيجبر والديه على قبول زواجه منها.. لم تدر الأخت الكبرى شيئاً مما كان يدور، أما سعيدية فقد عادت إلى لاهور بعد أن قضت شهرين في سعادة وهناء.

أخذت ناصرة بيغم الفتاتين في زيارة لقربتها، كانت هذه أول مرة تشاهد فيها سعيدية وشاذية حياة الريف، قضت الأختان وقتاً ممتعاً وتأثرت جميع بنات القرية بهاتين الفتاتين القادمتين من المدينة. وفي القرية نفسها كان لسجاد حسين أحد ملاك الأراضي أربعة أولاد أصغرهم أنهى دراسة الماجستير في الأدب الإنجليزي، وكانت أمنيته

أن يتزوج من فتاة متعلمة من المدينة، وكانت سعدية فطنة للأمر، فبدأت تضع يدها في يد أخت شاهد الكبرى، راحت تتقرب منها حيناً وتظهر لها الخجل حيناً آخر، وتقدم لها «بلوفر» أو بعض أعمال «الكروشييه»، أما صفة فلم تكن بقادرة على البقاء بعيداً عن تأثير سعدية.. وفي البيت ذاع صيت سعدية وراح الكل يمتدحها، ويتحدث عن صفاتها الطيبة، وكانت هي بطريقة أو بأخرى تظهر على شاهد. وفي النهاية أعلنت خطوبة سعدية وشاهد، وأرسلت برقية إلى أخيها وبدأت سعدية تشعر بإحساس النصر فرحة مسرورة. بينما راحت ناصرة بيغم تعاكس شاذية وتثيرها وتستحثها في الوقت نفسه: «انظري ها هي سعدية ستذهب إلى «بيت عدلها» حيث ستعيش في سعادة وراحة ورغد العيش، وأنت أنتِ لن يسأل عنك أحد، ولن ينظر أحد في وجهك».

كنت أفور من داخلي، أبكي بدل الدموع دماً، وقمت بالامتناع عن أعمال البيت احتجاجاً، وأغلقت على نفسي الغرفة، وبقيت ليل نهار قابعة في سريري أضع رأسي بين كفي كالمجانين أو أغرق نفسي في قراءة الكتب. في تلك المدة اهتمت بي سعدية كثيراً... كانت تقوم بإحضار الطعام إلى غرفتي، تغسل ملابسي، إلا أنها لم تكن تجبر بخاطري أو تواسيني بكلمة واحدة، ولم تكن تعيرني أي انتباه، كنت أود من صميم قلبي أن تحدثني أو تواسيني ولكنها كانت تمضي إلى حال سبيلها ليل نهار، هاشة باشة ضاحكة، تترنم بألحان أغنية أو تدندن بكلماتها.. وفي اليوم الثالث أو الرابع حضر خطيبها إلى البيت أيضاً، فأعدت سعدية ما لذ وطاب من ألوان الطعام، لم تخلع سعدية خاتم برويز الذي أهدها إليها قبلاً، وحين عرف برويز ذلك حضر وعلى وجهه أمارات الحزن، حتى كاد

بيكي، ولكن سعدية ومن دون خجل راحت تُسمعه كلاماً مهيناً: «أمك هذه لم تكلف خاطرها وتأتي لترينا وجهها، ولو مرة واحدة وحتى لو كانت رضيت بزواجنا إلا أنها ستظل كما هي، إنكم تخيفوننا بثروتكم وغناكم! أما هؤلاء الناس الذين ارتبطت أنا بهم فهم من القرية، وأنا قادرة على أن أخيفهم دائماً» وبرويز المسكين لا يدري ما يقول، فيصمت..

في تلك الأيام تم زواجي على شاب فقير أمّي لم يذهب إلى مدرسة، ولا حتى إلى كتّاب، وبعد زواجي بسنة تزوجت سعدية من شاهد وكان الذهاب إلى القرية للزفاف، وبعد أسبوع استأجر زوجها بيتاً في حي راقٍ بلاهور، وبدأت سعدية تعيش حياة هانئة سعيدة تحررت خلالها من كل تفكير أو هم، كان أهل زوجها قد بدؤوا يخشونها فعلاً، وبدأ زوجها يلبي كل طلباتها وبدأت النقود تطير من يدها هنا وهناك.

كانت سعدية في البداية صاحبة مزاج، كانت مغرمة بكل شيء ومولعة بكل ما ترى، والآن وجدت متنفساً لتحقيق كل رغباتها، فالمال وافر والزوج مطيع، فأظهرت ما كان بداخلها من رغبات، وراحت تعيش حياة تحقق فيها كل ما تصبو إليه: الملابس.. أحدث «الموديلات»، الذهب والمجوهرات، وكل ما يمكن أن تفكر فيه امرأة من مباحج الحياة.. كانت سعدية كما هي دائماً لا مبالية، معتدة بنفسها، سلمت البيت كله للخدم، بعد سنة وهبها الله طفلاً، والآن ثبتت أقدامها في بيتها وبين أسرة زوجها..

أما أنا، فكنت أشعر أمامها بالإحساس بالنقص، فلم يرزقني الله الولد، ولم يهبني الثراء الذي تتمتع به سعدية، وكنت دائماً أذهب

إليها، وأنا مغلوبة على أمري كالمستضعفة، وسعدية كانت على قدر كبير من الذكاء والدهاء أيضًا، فقد كانت تقوم على خدمة زوجها بنفسها وتظهر له حبا وتستميله بدلالها، ولكنها إذا ما كانت تراني أخدم زوجي بأسلوبها نفسه توجه الحديث إلى زوجها، قائلة: «انظر كيف تعمل كالخادمت، إنه لا يعيرها أي اهتمام وهذه المسكينة في سبيلها إلى الموت، أه لو نفسه كنت في مكانها لطلقته بالثلاث وانفصلت عن مثل هذا الزوج!» وشاهد المسكين شاباً قروياً بسيطاً كان يسمع هذه الانتقادات، فيصاب بالذعر... والحقيقة أن سعدية أصبحت سيدة طيبة من داخلها تحب كل من حولها إلا أن نقطة الضعف الوحيدة عندها كانت محاولتها إثبات مكانتها في أي مكان حلت به، وهي تريد أن تعلن للجميع أنها تنتمي إلى أسرة ثرية، وربما لهذا السبب وفقت في حياتها حتى الآن وعاشت ثرية، فالناس دائماً ومنذ صغرها كانوا يأخذون بيدها ويساعدونها، وبعد الزواج عاشت حياة ناعمة، وهذا لا يحدث مع كل فتاة في مجتمعنا، فأنا نفسي أختها ومضيت في حياتي على الصراط المستقيم، فنجاحتها أوجدت بداخلها الإحساس بالعظمة.

بدأت مراسم زواج أخي، وبرغم أن سعدية هي الصغرى بيننا إلا أنها كانت دائماً في المقدمة، الأخت الكبرى وأنا، كنا من الناحية المالية فقراء لهذا كان نجم سعدية يعلو في الأسرة، المجوهرات تُشترى بمشورة سعدية، الملابس تحاك طبقاً لرأي سعدية، وكل شيء يتم بناء على رغبة سعدية، وناصرة بيغم أيضاً وضعت على الرف! لم يعد أحد يهتم بها والمسكينة تلقي علينا نحن الأختين الكبريين بسهام سخريتها، فتقول:

«إيه.. شاذية! أسمعت؟ سعدية اشترت للأخ هداياه التي سيقدمها لعروسه، أوه! اشترت طقمًا ذهبيًا رائعًا.. هل رأيته؟».

«لا يا أماه.. لا علم لي بهذا الأمر» أجيب عليها، وأنا أبكي من داخلي.

«آه، من يسأل عن أمثالك أو أمثالي؟! حسنًا، فأنا مهما كنت زوجة أب لا أكثر ولا أقل، لكن أنت ونادية الأختان الكبريان، وأنتما شقيقتان».

وكانت ناصرة بيغم في الظاهر تبدي تعاطفًا معنا، فتوجه أسئلة ونحن الأختان تصيبنا سهام الجراح، وكانت تحاول أن تبدي ابتسامات كاذبة وضحكات جوفاء، وهي تنظر إلى وجهينا.

وأخيرًا، وبصعوبة كان يوم زواج أخي، فزواج الإخوة مثل زواج الأخوات كان أعظم أمنية.. في يوم الفرح ذهبنا ونحن نتظاهر بالمماطلة، وكانت زفة العروس إلى مدينة أخرى، حيث عقد القران، وكانت السيارة التي تحملنا قد تخلفت عن ركب المدعويين. أما سعدية فجلست مع العروس وعريستها في سيارة المقدمة، ونزلت في بيتهما لتتولى تسلم «النقود» والإشراف على ترتيب إتمام مراسم احتفالات الزواج.. وابتداءً من إعداد الحلوى حتى مراسم غسل أقدام العروس كانت سعدية في المقدمة.. وحين وصلت مع الأخت الكبرى كان العريس وعروسه في حجرتهما، بينما كان بقية المدعويين نظرًا للتعب والإرهاق يستعدون للنوم، فنظرت إلى الأخت الكبرى نظرة حملت لها كل معاني المسكنة والمذلة، فما كان منها إلا أن خفضت رأسها، وكأنها تقول: لا حول ولا قوة لنا بما يدور هنا.. أما سعدية، فبالإضافة إلى سيطرتها

التامة على زوجها، فقد وضعت الأخ تحت إمرة محبتها، حتى إنه راح إذا ما اشترى أي طعام أو فاكهة أودعها يد سعدية بدلاً من أن يعطيها إلى عروسه، وكانت العروس تلوي شفيتها وتنتفض كمهرة غاضبة ولا أكثر من ذلك. وعدنا كلُّ إلى بيته بعد انتهاء احتفالات الزواج المعهودة أنا وسعدية، فكانت قد ثبتت أقدامها في بيت الوالد، وبعد أشهر انتقل شاهد إلى بيت آخر.

أنجبت زوجة أخي طفلة انتقلت إلى رحمة الله، بعد ولادتها بأيام، وقالت سعدية على الفور: «سوف يكون لها سبع بنات سوف يكثر عدد بنات أخي..» التحدث بمثل هذا الكلام غير المناسب كان من فطرة سعدية، ويعلم الله متى يخرج مثل هذا الكلام من فمها.. لقد وهبها الله خمس بنات.. توطدت العلاقة بين الأخ والأخت الآن، فزاهد أكمل تعليمه وبدأ في ممارسة أعمال تجارية عادية، وراح بعدها يتوسع ويتوسع، حتى صارت أعماله على نطاق واسع، وسعدية كان زوجها أستاذا بالجامعة وكان يمتلك بدوره أربع قطع من الأرض تقارب مئة فدان، والأسرتان الآن تذهبان لمعاينة قطعة أرض، والآن يعد برنامجاً لزيارة منطقة مري، حيث تقضي إجازة الصيف.. وهكذا توطدت العلاقة..

ومرة كنت أجلس في بيت سعدية، وجاء أخي زاهد مع زوجته ووجه حديثه لسعدية: «هيا هيا يا سعدية، قومي لنذهب إلى «حي الورد»، سوف نتناول الطعام هناك أيضاً» وتشعر سعدية بقليل من الخجل لعله خجل مصطنع، ثم يصيبنى أنا الخجل الأكبر، فأنهض من فوري:

«سعدية.. لقد تأخرت، سوف أرجع إلى بيتي».

وتقول سعدية: «اجلسي...».

وتمضي سعدية في أداء دورها على أكمل وجه، ولكنني أخرج من فوري.. أه كيف لي أن أعبّر صحراء هذا الإيذاء وحدي؟! إن الانقراض بداخلي يمكن أن تخبرني بأنني صرت حطامًا، وتبعثرت هنا وهناك، وبرغم أن سبيل الرفاهية وراحة البال قد تيسرت تمامًا إلا أن سعدية قد أصابها الكفر بالنعمة، فهي لا تشكر الله أبدًا على ما هي فيه ولا تؤدي حقه..

«أخي.. إن أهل هذه القرية قد أصيبوا بالكم، لقد نسوا إكرامي لهم... انظر الواحد منهم تراه إذا ما كان عنده عمل في المدينة وضع «التفليحة» على كتفيه، وحمل حقيبته ومضى متبخرًا يدق الأرض من تحته.. أختي شاذية! أنت محظوظة ليس لك حماة، أقصد أختًا لزوجك.. بالنسبة لي أخوات الزوج الثلاثة... واحدة ترملت، وأخرى تمسك دائمًا بتلابيبي، وثالثة تركب فوق رأسي لا تتركني ستة أشهر، ثم العم ووالد العم والأطفال، وما أدراك ما الأطفال!... أوه!».

عرفت سعدية أن «معظم» أخذ أولاده وذهب إلى السعودية.. فماذا تراها تفعل؟ إنها تحاول أن تجد طريقًا للسفر إلى الخارج، وشاهد متقلب المزاج، يتضايق سريعًا، لا يريد أن يفارق إخوته وأخواته أو والديه، ولكن لما كان الأمر أمر سعدية، وذلك بذكائها ودهائها، لذا أوصلته إلى زاهد، فاستفسر من معظم عن كل التفاصيل..

أعد العدة.. وانطلقت سعدية بزوجها وأولادها إلى السعودية.. وبعد سنتين جاءت في إجازة.. زادت معلوماتها زيادة ملحوظة، فهي

الآن تتحدث عن السفن والطائرات وعن المضيفات وتقدح في حقهن بكلام كثير، ثم تحاول تقليدهن.. وراحت سعيدة تتحدث خليطاً عجيباً من الإنجليزية والعربية، وأهل القرية البسطاء يستمعون إليها وهم صامتون، فقد وزعت عليهم الهدايا وأعطتهم الهبات، إلا أن «شاهداً» صار كغصن ذبل وذوي.. وأظهر الجميع علامات الحيرة الممزوجة بالتعجب! ولكن سعيدة كانت منغمسة في ثروتها ومباهجها لا تشعر بشيء مما يدور حولها.

لاحظ زاهد الأمر؛ لأنه كان الأقرب إلى سعيدة، فسعيدة كانت بالنسبة له الأخت المفضلة دائماً، فاستشار الأطباء فشخصوا المرض... سرطان! سمع زاهد ما قاله الأطباء، وعرف الجميع الأمر، وظهرت آراء هنا وهناك، لكن كل واحد تمنى أن لم يحدث ما حدث.. بدأت مرحلة العلاج وأرسل شاهد إلى خارج البلاد.. وأنفقت الأموال الطائلة، لكن إرادة الله حلت في عبده المريض، فانتقل إلى رحمة الله..

وترملت سعيدة في عز شبابها.. لديها من الأولاد نص «دسته» وتحولت لياليتها الفضية إلى ظلمة حالكة، إلا أن جبل الحزن هذا لم يجعل سعيدة تتحني وظل دماغها وسط هذه الظروف يعمل بالطريقة نفسها التي كان يعمل بها قبلاً.. وقد حدث أن استوردت سيارة من السعودية، وكان عليها أن تدفع «جمركها» البالغ ٣٥ ألف روبية تقريباً، فطلبت سعيدة من الأخ الأكبر لزوجها أن يدفع «الجمرك» ففعل، وبعدها قالت سعيدة، وهي تتمايل، وتلوي لسانها بالكلمات: «أتظنني أرد هذا المبلغ لهم؟! هيه! هؤلاء الناس أكلوا جميع محصول أرضنا كلها، فلو «دست» على هذا المبلغ، فلا بأس!».

ورحت في عالم من الحيرة، وأنا أتأمل وجهها، إن أهل زوجها أثبتوا حقيقة أنهم أناس طيبون، لقد رعوها كل رعاية واهتموا بكل طلباتها، ولكن سعدية التي كانت أحياناً تتملقهم في وجود شاهد كشفت الآن بكل وضوح عن وجهها الكالح، فإذا جاءت أخت زوجها الأرملة وجدت من ابنها كل إهانة، فتعود المسكينة أدراجها باكية مكسورة الخاطر.. تذهب إلى الأخت الكبرى تشكو لها:

«أختاه أنت تسكنين في بيت سعدية، أنت تضربين بالحذاء، لكن ما ذنبي أنا يساء إلي من أطفال صغار؟!».

ولم تعد صفيية تأتي ثانية إلى بيت سعدية، وكان هذا ما تريده سعدية، كانت إذا جاءت زوجة الأخ الأكبر تقوم بالإساءة إلى أخوات الزوج، وإذا جاءت أخوات الزوج تقوم باغتياب زوجة الأخ الأصغر، وإذا جاءت جارة لها أسمعته حكاية عن جارة أخرى، وأشعلت نيران الفتن في بيوت كثيرة، وتسببت في عراق العديد من الناس. ومع هذا فالله وحده يعلم أي سحر كانت تمتلكه سعدية! فقد كانت لها القدرة في تسوية الأمور وحسمها طبقاً لما تريد ويروح الناس يزورونها ويلتقون بها من جديد.

كانت حرارة الشباب تلهبها، فتتحدث بكلام يجعلني وأختي الكبرى ننظر إلى بعضنا ونسكت.. ومن هذا أن الأخ الأصغر للزوج اعتاد أن يأتي من القرية مرتين كل شهر، فكانت سعدية تقوم عمداً بالاقتراب منه والاحتكاك به، ويبدو هذا من الظاهر لا عيب فيه إلا أن سلوكها على كل حال كان يعطي هذا الإحساس.. لكن الرجل متزوج وصاحب

أولاد، وأكثر من هذا رجل شريف، فهو يرعى زوجة أخيه كونها أمماً.. أمماً للأولاد.. لأولاد أخيه، لكن بداخل كل إنسان شيطانه أيضاً، ومن هنا إذا مات وجد فرصة ليستقل الإنسان من رفعة وعظمته إلى الحضيض.. كان دلال سعيدة الأنثوي يجعل وجه إلياس يحمر ويصفر ويخضر، لكنه كان يتمالك نفسه، وفي النهاية أفلح عن المجيء إلى لاهور، وإذا ما حدث وجاء لظرف ما، كانت سعيدة تتصرف بطريقة طبيعية.

بعد الإقامة في «جهلم» كانت تخرج من القرية أحياناً، كان الأولاد صغاراً، وهنا أيضاً أكملت العدة بعد موت زوجها، إلا أن سعيدة صارت مصابة بمرض نفسي، كان معظم قد عاد من السعودية، فاصطحب أسرته، وجاء إلى بيت سعيدة، فتبادلت معه أيضاً بعض الجمل من تلك التي تحمل مغزى ما، كانت أي امرأة تتزين بالذهب والمجوهرات تجعل سعيدة تستاء منها، بل تشعر نحوها بالضيق والغضب ويتكدر خاطرها، وحدث أن ذهبت لتحضر حفل زواج أقارب حماتها، وهناك وجد نساء إخوة زوجها، كن قد وضعن زينتهن من الذهب، وكان هذا أمراً عادياً في هذه المناسبة، لكن سعيدة كانت تجلس هنا تارة وتقعدها هناك تارة أخرى، لا يقر لها قرار، وتظهر ما يتفتق عنه قلبها من مرارة: «كل شيء أعد من أجل كيدي، أظنونني لا أعرف أن «صغرى» زوجة أخ زوجي ليس لديها أدنى اهتمام بالتزين بالذهب..».

ويحاول الجميع إفهامها، لكن سعيدة هي سعيدة.. كيف تقلع عن حيلها؟! ذات يوم وصل الأمر مدام.. كان ذلك يوم عيد، والجميع أعد عدته لمثل هذا اليوم، وبنات سعيدة كبرن وبلغن سن النضج، ولبسن أيضاً الأساور والخواتم والأقراط، وفجأة نظرت سعيدة إليهن

واغرورقت عيناها بالدموع: «حين يضع أي شخص الأساور في يديه، فإنني أشعر بالنار تسري في جسدي». وحاولت أختها الكبرى أن تفهمها: «أجنت أنتِ..! إنهن بناتك، قطعة منك، فلذات كبدك، كيف تفكرين بهذه الطريقة، وفي المستقبل ستأتي إلى بيتك زوجة ابنك، ولن تتحمل كل هذه الأمور!». فردت سعيدة: «على حذائي! لا تهمني هذه، فهذا بيتي وهذه أرضي وكل شيء هنا ملكي!». وتخرج من فمها هذه الكلمات والعبارات غير اللائقة على الإطلاق.

ويصاب الجميع بالصدمة، لقد احترمها الجميع كثيراً وتحملوها مقدرين ظروفها، وأنا نفسي لم أكن أذهب إلى بيتها، وفي يدي أساور أو في أذني قرط أو في إصبعي خاتم أو أي شيء من هذا القبيل، ولم أكن حتى أضع أي مساحيق تجميل على وجهي، لكن سعيدة لم تكن تتراجع عن حركاتها تلك، كان لها ابن وفق الله طريقه وأصبح مهندساً، وبناتها - ما شاء الله - تزوجن جميعاً.. لكن سعيدة تناست علاقة المحبة التي ربطتها يوماً ما بإخوتها وأخواتها وأشربت بناتها وابنها مشاعر الكراهية تجاه الأخوال والأعمام، وكأن أحداً من أفراد الأسرة ما كان يراها يوماً من الأيام.. وهكذا صار لسان الابن لا ينطق إلا بالشتائم ولا يلفظ إلا بالسباب. أما البنات، فقد فتن الجميع بجاجة وسفاهة، وكانت النتيجة أن فقدت سعيدة احترامها أمام الجميع.. ولم تفق سعيدة مما هي فيه برغم كل هذا، وراحت تتباهى بأولادها وأموالها.

وجاء يوم الفرح والسرور الذي تنتظره كل أم، اختارت سعيدة عروساً كالقمر لابنها أضاءت بها البيت، واشترك الجميع بالأفراح

والاحتفالات بكل ما لديهم، وتم الزواج على خير بعون الله، لكن كيف لسعدية أن تغير عاداتها.. لقد استمرت توجه النقد لزوجة ابنها: «يا أختي، إن إغلاق باب الحجرة والنوم حتى العاشرة يتعارض مع تقاليدنا وقيمنا.. انهضي في الصباح الباكر..» وتريد سعدية أن تفرض على العروس كل شيء: «يا.. يا عروسة، ما هذا اللون الذي تختارينه.. أو.. هذه الأساور الفضية.. هذا لا يناسبك، ضعي في يدك هذه الأسورة، أرى أنها تناسب هذا الرداء الأحمر، ولا بأس من هذا العقد الرائع حول رقبتك...».

كانت سعدية تبدي رأيها في كل صغيرة وكبيرة، بينما العروس التي لم يمس على عرسها إلا أسابيع قليلة تغلي من داخلها، لكنها كانت تتحامل على نفسها، وتصمت... برنامج الذهاب إلى منطقة كاغان الجميلة أعد من أجل قضاء شهر العسل إلا أن سعدية تقحم نفسها في الأمر وتثير سفسطة وجدلاً، لا طائل منه...

«لا.. لا.. الطريق خطير، لقد ذهبت هناك، لا.. لا.. اذهبوا إلى لندن لا ضرورة للذهاب إلى هناك».

وصرفت العروس عن برنامج الذهاب إلى كاغان... وبمرور الوقت خرجت العروس عن صمتها، وحدث ما كنا نخشاه جميعاً وذات يوم واجه الابن أمه وأسمعها قراراً صريحاً جريئاً:

«يا أماه! عليك أن تذهبي وتعيشي في القرية مع عمي الأكبر، واطركينا نعيش حياتنا».

وتلخبط دماغ سعدية على الفور:

«أي والله.. أي والله سأذهب!! كنت أعرف كل شيء، أعرفك أيها الخبيث، الناس يتغيرون في سنوات، ولكنك لم تنتظر حتى يتغير لون الحنة في يد عروسك.. آه.. لقد أخذتك في حضنها ولفتك بين يديها، جعلتك خاتماً في إصبعها، وأنا.. أنا حملتك في بطني وجوعت البنات؛ لأنفق عليك، أنفقت على تعليمك عشرات الآلاف من الروبيات، وأخيراً تعاملني بهذا الشكل، وتكون هذه هي نهاية تعبي وشقائي فيك؟!».

«نعم، نعم! الصحيح أنك لم تحسني لي، لقد قمت بواجبك، فالآباء كلهم يفعلون نفس ما فعلت» هكذا رد الابن رداً عنيداً يتناسب مع ما سمعه.

وجاءت سعدية إلى بيتي، وهي تبكي كسيفة البال مهيضة الجناح، وتحيرت.. يا إلهي! إنها القدرة الإلهية.. هل هذه هي سعدية التي لم تكن تهتم بأحسن الناس، التي أبكتني بدلاً من الدموع دماً، والتي راحت تشتم ابنها بلهجة المدح: «الكلام صريح واضح قاله دون أدنى تردد»، سعدية اليوم تنتحب، تسكب الدموع، وأنا أحاول أن أسكتها.. وجاء على خاطري مرة ذكرى اليوم التي مطت فيه سعدية شفيتها أمامي، وهي تقول: «زوجك.. وجهه مشرق، الدم يتفجر منه، إنك واهمة، إنه بصحة جيدة، لا مرض به عمره سيطول ويطول؟» وكأن حياة زوجي سبب تعاستها وبؤسها، ولأنني أعرف أنها تعاني من مرض نفسي سكت، لم أرد على عبارتها إلا بالصمت... واليوم تحيرت من هذا التغير الذي أحدثته القدرة الإلهية، فأحوالي المالية بحمد الله أطيب، وسعدية تأتي

لاجئة إليّ؛ لأن زوجة أخي لم تتحملها، لكن الصدمة قد أصابت سعيدة في مقتل، فبعد نحو شهرين تقريباً اختل توازنها العقلي، وعالجتها بكل ما أستطيع إلا أنها لم تفق مما كانت فيه، واضطرت إلى إدخالها إحدى المستشفيات، حيث كانت دائماً تضع في يديها الأساور تارة، وتخلعها تارة أخرى، ثم تبدأ أحياناً في بكاء طويل، أوتذهب إلى المرضى الآخرين، وتقول: «هيا نركب الطائرة.. هيا نتسوق في حي شادمان... لا، لا... هيا نأكل الآيس كريم أولاً، ثم نذهب للتسوق فيما بعد».

أما الابن وزوجته فقد نسيا كل شيء لم يذكرها بشيء.. أما الأخوات والإخوة.. فيذهبون أحياناً للقاءها، يهتمون بها. وحين تأتي بناتها من الخارج يذهبن لرؤيتها... مسكينة سعيدة!!

obeikandi.com

جَنِّي القمقم

للأديب: أ. س. حميد

(محمد صدر عالم صديقي)

أ. س. حميد هو الاسم الفني الذي اشتهر به الأديب محمد صدر عالم صديقي، وقد اشتهر بنقده اللاذع للمساوئ الاجتماعية من خلال كتاباته القصصية الساخرة. وهو في هذا الأمر لا يتورع أحياناً عن السخرية الواضحة، أو تناول موضوعات تكون أحياناً فاضحة يكشف بها عن مساوئ قد لا يجرؤ غيره على تناولها، حتى إنه تعرض ذات مرة للمحاكمة، وقد برأت المحكمة ساحته. وعلى كل حال، ومهما كانت الموضوعات التي يتناولها، فقد اخترنا هنا إحدى قصصه بعنوان:

«جَنِّي القمقم» يناقش فيها قضية اتجاه بعض الجهلة في المجتمع إلى الاعتقاد بالسحر والشعوذة واللجوء إلى من يدعون أنفسهم بالشيخوخ الذين يسخرون الجن لحل مشكلات الناس وتلبية رغباتهم، كما يسخر ويتحكم على أولئك الناس الذين يعتقدون في بركة أصحاب الأضرحة والقباب وولايتهم.

جني الققم:

نظر إليّ «الشيخ بابا» وقال:

ما أمنيتك؟

فقلت:

أنا رجل مضطرب الأحوال، فاعطف علي برقية تجعلني أسيطر على الجن.

أغلق الشيخ بابا عينيه مدة، ثم أمرني أن «أرمي بياضي» وأعطيه بعض النقود، فقلت له بأدب جم:

ليس في جيبي «ليرة» واحدة، ولو أمكن أن تقرضني خمس أو عشر روبيات الآن، فسوف أعيدها لك، حين أسيطر على الجن!

غضب الشيخ بابا، وهويستمع لكلامي هذا، ونادى على خادمه، وقال له:

أخرج هذا الشخص قليل الأدب من مكتبنا فوراً...

وحين اتجه خادمه نحوي قلت له مستعظفاً:

لا تتعب نفسك يا أخي، فأنا خارج من تلقاء نفسي.

فتبعني الخادم حتى الخارج، وقال لي بلهجة كلها عطف:

لماذا تضيع وقتك في الجري وراء الشيخ بابا، لو كان فعلاً
بداخله شيء من الروحانية.. أترأه يفرض هذه الرسوم، ويمارس هذه
التجارة؟!

فشرحت له ظروف الصعبة، فقال:

لا يمكنني أن أحقق لك أمنيتك هذه، لكن يمكنني بلا شك أن
أعطيك رقية تقرأها في وقت انتصاف الليل، شريطة أن تنزل الماء
في نهر من الأنهار حتى يصل الماء إلى وسطك..

فأخذت الرقية وعقدت العزم الأكيد على أن أجربها بكل تأكيد..

بادرني الخادم بقوله:

حين يتبعك الجني عليك أن تعطيني عن طريقه مبلغاً بالتقسيط،
وسوف أعيده لك فيما بعد..

وفي الليل وصلت إلى النهر.. ورحت أتلفت حولي.. أتطلع هناك
وهناك.. ولما لم أجد أحداً نزلت إلى النهر، كما قال لي الخادم،
وبدأت أقرأ الرقية..

تجمدت قدماي من شدة برودة الماء، ولكنني لم أهتم بالأمر..
وحين انتهيت من قراءة الرقية ألف مرة رأيت قممًا يسبح فوق الماء..
يتجه نحوي.. فحملته وطلعت إلى الشاطئ.. رفعت غطاء القمقم،
فظهر لي جني.. صاح:

لقد كنت نائماً في راحة وسكون.. في هذا القمم.. منذ ألف عام،
لماذا أزعجتني؟! والآن أخبرني كيف أخدمك؟

فقلت له:

أحضر لي خزائن قارون من حيث كانت؟

قال الجنّي:

إذا كان عندي خزائن قارون فلماذا أسكن هذا القمم؟!

فقلت:

إذا أحضر لي فرختين و«دستة» فطير بالسمن البلدي.

فقال الجنّي:

أنا نفسي جوعان منذ زمان..

فقلت:

كيف تكون عفرية من الجن إذا، العفاريت من قبلك كانت تحمل
الأميرات، وتأتي بهن من آخر الدنيا في لحظات..

فقال الجنّي:

أخي.. لقد قمت بهذا أيضاً، فقام أقارب الأميرات ورفضوا ضدي
قضايا ودارت مرافعات..

إِذَا أَحْضَرَ لِي خَبْزاً مِنْ أَيِّ مَكَانٍ وَأَطْعَمَنِي.. هَيَا.

قَلْتُ هَذَا فِي غَضَبٍ:

كَيْفَ تَكُونُ عَضْرِيَّتاً..؟

فَعَادَ يَقُولُ:

إِذَا أَعْطَنِي خَمْسَ رُوبِيَّاتٍ..

سَمِعْتُ هَذَا فَطَارَ لِي وَأَصَابَنِي طَيْشٌ وَبَدَأَتْ أَضْرِبُهُ إِلَى أَنْ ضَمَّ يَدَيْهِ وَرَفَعَهُمَا نَاحِيَتِي مُسْتَجِدِّياً قَائِلاً:

أَنْتَ مُوَلَّيٌّ وَسَيِّدِي.. سَأَنْضِدُ مَا تَأْمُرُ بِهِ.. الْحَقِيقَةُ أَنَّهُ مِنْذُ أَنْ ضَاعَ مِنِّي «الْخَاتَمُ السَّلِيمَانِي».. مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ سَلَبَتْ مِنِّي كُلَّ قُوَّتِي وَضَاعَتْ مِنِّي طَاقَتِي.

بَعْدَ ذَلِكَ أَخَذْتُهُ إِلَى الْبَيْتِ وَأَكَلْتُ مَا وَجَدْتُهُ وَأَطْعَمْتُهُ مَعِي.. وَفِي الْيَوْمِ الْمَقْبِلِ اسْتَأْذَنْتَنِي؛ لِيَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَذْنَتْ لَهُ..

ذَهَبَ الْجَنِّي إِلَى الْمَدِينَةِ، وَوَصَلَ مَبَاشَرَةً إِلَى مَكْتَبِ الْجَرِيدَةِ، وَهَنَّاكَ قَالَ لِرَأْسِ التَّحْرِيرِ:

أَنَا جَنِّي أَحْتَاكُ وَظَلِيفَةٌ أَوْ أَيِّ عَمَلٍ..

فَتَفَحَّصَ رَأْسُ التَّحْرِيرِ الْجَنِّيَّ، وَقَالَ:

كَانَ هُنَا مِنْ قَبْلِ كَثِيرٍ مِنَ الْعَفَارِيثِ مِمَّنْ كَانَ يَصْعَبُ السَّيْطِرَةَ عَلَيْهِمْ.. لَا عَمَلَ هُنَا لَكَ.. عَلَيْكَ أَنْ تَقِيَسَ الطَّرِيقَ..

فخرج الجني إلى الشارع، وراح يقيس الطريق.. ورآه الناس يفعل هذا فتحيروا وتجمعوا من حوله.. فسأله أحدهم:

ماذا عساك أن تفعل؟

فقال الجني:

لقد أمرني سيدي أن أقيس الطريق، وها أنا أفعل ما أمرني به.

راح الناس يضحكون بعد أن سمعوا كلامه، فتطلع إليهم الجني، وقال:

يا إخوتي، أنا عفريت من الجن، إما أن تدلونني على عمل أوتعيدوا لي الخاتم السليمانى..

كان الأطفال أيضاً قد تجمعوا في ذلك المكان وبدؤوا يمطرون الجني بالأحجار، فاختفى من المكان من فورهم.. ووصل إلى صاحب مكتبة لبيع الكتب، فقال له:

أعطني الخاتم السليمانى إن كان عندك..

فقال بائع الكتب:

لا يوجد عندنا الخاتم السليمانى، لكن بالتأكيد عندنا المجموعة الشعرية للشاعر المشهور فيض أحمد فيض..

فتركه الجني، وانطلق حتى وصل إلى سوق «أناركلى» فرأى رجلاً

بييع الملح السليمانى، فقال له الجني:

يا أخي، إنك تبيع الملح السليمانى.. لا بد أنك تعرف شيئاً عن الخاتم السليمانى.. دلني على مكانه، فأنا أبحث عنه منذ أيام..

فسأله بائع الملح السليمانى:

لكن من أنت؟!

قال الجنى:

أنا عفريت من الجن..

فاستدعى بائع الملح السليمانى شرطياً، ففّر العفريت من المكان على الفور.. ووصل إلى مدينة، فرأى من بعيد قلعة السلطان القديمة، فظن أنه يمكن أن يجد فيها الخاتم السليمانى.. فاتجه إليها.. كانت القلعة خربة خاوية.. فقد انتهى فيها عهد السلطان وزال، ولم يبقَ فيها غير المباني.. فراح العفريت يتطلع هنا وهناك.. فرأى سرداباً.. فدخله.. فرأى أمامه رجلاً نحيفاً ضعيفاً كأنه الشبح يضع يده على بطنه ويولول.. فبادره الجنى، قائلاً:

من أنت؟ ولماذا تتألم هكذا؟

سمع الرجل كلام الجنى، فأخرج من جيبه «بطاقة» ومدّها إلى العفريت، وقال:

اسمي «هولاكو»، في زمن ما دمرت مدينة بغداد طوية طوية..

وعلى الفور أخذ الجنى قالبين من الطوب، وحطمهما قائلاً:

أنا أيضاً يمكنني أن أحطم طوية طوية هكذا.

فقال هولاكو، وهو يتأوه:

آه جيشي دمر المدينة بيتاً بيتاً، وخرب البيوت طوبة طوبة، ثم مضى وتركني هنا في زنزانة القلعة هذه.. ومنذ ذلك الوقت وأنا سجين.. يأتي الناس، فيشاهدونني ويسخرون مني..

قال الجني:

لماذا تمسك بمعدتك؟

فرد هولاكو:

«يا أخي، أنا أشكو من انتفاخ في معدتي» واستمر في حديثه قائلاً:

لكن من أنت؟ ولماذا جئت هنا؟

فقدم له الجني نفسه، فصرخ هولاكو قائلاً:

أنت جني علاء الدين.. يمكنك أن تساعدني.. احملني من هنا..

خذني إلى قصري الملكي..

فاعتذر الجني قائلاً:

لقد جئت إليك الآن أطلب منك قرضاً..

لعلك لم تقرأ البطاقة بطريقة صحيحة.. لقد كتب فيها: لا تجبل

هولاكو بطلب قرض منه..

فقال الجني:

إذا.. فلعلك تخبرني أين يمكن أن أجد الخاتم السليمانى الذي

ضاع مني؟

راح هولاكو يجوب المكان على مهل، ثم توقف.. وحينئذ رأى الجني في قدم هولاكو اليمنى صندوقاً من البلاستيك، وفي قدمه اليسرى فردة حذاء قديمة..

فتح هولاكو حقيبة يده، وأخرج خاتماً أراه للجني قائلاً:

تفضل هذه أمانتك.. لقد ظللت محتفظاً بها لمئات السنين.

رأى الجني الخاتم السليمانى، فبلغ منه السرور حدّه، ووضع الخاتم السليمانى في جيب لصيق بصدرة لعل قوته تعود إليه.. ثم شكر الجني هولاكو، واختفى خارجاً من القلعة، ولم يكده يخرج من بوابة القلعة حتى فقد كل طاقته وجميع قوته.. فقد كان يطير إلا أنه سقط فوق أشجار حديقة، ثم سقط على الأرض، فحاول العودة إلى السرداب الذي وجد فيه هولاكو.. وراح يتطلع هنا هناك، فلم يجد أحداً. وفي ركن وجد شباكاً معلقة على الجدران.. فخرج من القلعة، وقد أصيب بالسقم، وكادت روحه تخرج منه لما كان يعانيه من جوع شديد، فجلس يتناول الطعام في أحد المطاعم، وحين انتهى من الأكل طلب منه عامل المطعم الحساب، فقال له الجني:

أنا جني ألف ليلة وليلة..

فبدأ عمال المطعم يوسعونه ضرباً وركلاً، وهو يصيح قائلاً:

أنا جني ألف ليلة وليلة.. لا تضربوني.. لا تركلوني..

وسلمه عمال المطعم إلى الشرطة، فأدبه رجال الشرطة تأديباً جعله يصرخ ويصيح:

أرسلوني إلى بغداد.. ضعوني في قممقي وأغلقوا علي..

لكن أحداً لم يستمع لصياحه وندائه.

وفي اليوم المقبل أحضر الجني إلى المحكمة، حيث صدر عليه حكم بالسجن شهراً، وفي السجن ساءت حال الجني، وكان يقول لكل شخص:

أنا جني، أنا عفريت من الجن.. أنا جني..

لكن لم يكن هناك من ينصت إليه، وأشبعه المساجين ضرباً وركلاً وأدبوه تأديباً كان يستحقه، ثم شغلوه في العديد من الأعمال واستخدموه هنا وهناك...

وبعد أن خرج من السجن كانت حاله مختلفة تماماً، فقد برزت عظامه تريد أن تخرج من جلده...

ورق قلبي له كثيراً.. فقلت له:

هل من وسيلة يمكنني بها إعادتك إلى عالمك؟!

فتهد الجني، وقال:

يا أخي، لا يوجد أي خاتم سحري، يمكن أن يعيدني إلى عالمي.. والله وحده يعلم ما هو مصيري على يد هؤلاء الناس... من بني آدم..

ولا يزال الجني يجلس - هذه الأيام - تحت شجرة على شاطئ نهر «الراوي» على هذه الحال، حتى جف عوده وصار كالشوكة.. وهو يضم إلى صدره قمقمه القديم، وكلما مرّ من أمامه شخص طلب منه الجني أن يدخله في القمقم، فيسخر الناس منه.. ويمضي كل منهم إلى حال سبيله..

ففكرت في خطة محكمة...

حين يموت هذا الجني سوف أبني له قبراً أجعل فوقه ضريحاً له قبة؛ ليكون مزاراً وأطلق عليه اسم ضريح «بابا جني».. ولا بد أنني سأكسب على الأقل خمسة أو عشرة آلاف روبية في الشهر..

فالجني الحي لا يفيدني بشيء.. لكن بلا شك الجني الميت سوف يغير من حظي.

obeikandi.com

نوبة قلبية

للأديب: ظفر إقبال

ظفر إقبال من الأدباء الذين يكتبون القصة القصيرة الهادفة، فهو يعالج قضايا داخل المجتمع قد تبدو غير واضحة، وهو هنا في قصته نوبة قلبية يعالج قضية المغتربين من الباكستانيين، وخاصة من يخلقون وراءهم أسرهم ويعيشون في الغربة، فتأكلهم السنوات دون أن يشعروا، وبطريقة ضمنية يناقش قضية وضع الزوجة داخل بيت العائلة ومعاناتها، وهي بعيدة عن زوجها المغترب، ويؤكد المؤلف هذه القضية التي تهم شريحة عريضة من أهالي شبه القارة الهندية الباكستانية، بل ومن غيرهم من بقية أقطار الدنيا.. ترى لماذا تعرض «أحسن» بطل قصته لهذه النوبة القلبية المفاجئة..؟!

نوبة قلبية :

منذ قليل وصلني في المكتب خبر، مفاده أن «أحسن» تعرض لنوبة قلبية وهو قابع في غرفة الإنعاش المركز.. كان هذا الخبر بالنسبة لي محيرًا؛ لأننا كنا معًا ليلة أول أمس، تناولنا الطعام معًا وتبادلنا الحديث حتى وقت متأخر...

كنت أنا وأحسن ندرس معاً في كلية واحدة بمدينة سيالكوت، وكانت بيني وبينه معرفة طيبة بسبب علاقتنا وانتمائنا لحي واحد بالمدينة، بعد الحصول على الشهادة الجامعية انتقل أحمد إلى كراتشي للبحث عن وظيفة يقتات منها، أما أنا فسافرت إلى المملكة العربية السعودية للعمل..

وفي الإجازة التقيت به مرة أو مرتين وعرفت أن والده قد انتقل إلى رحمة الله، فكان عليه واجب إعالة والدته وأخواته الثلاث.. ثم انقطعت صلاتي بأحسن... ومنذ عدة شهور والتقيت به فجأة في حفلة من الحفلات، فعرفت أنه يعمل في مدينة الرياض منذ أربع سنوات مضت، ورحنا نجدد علاقة الصداقة القديمة، وولتقي معاً كل يوم..

بعد الانتهاء من العمل بالمكتب خرجت متجهاً إلى المستشفى وكان أحسن قد نقل من غرفة الإنعاش المركز إلى «عنبر» المرضى وقد تحسنت حالته قليلاً، إلا أن تأثير النوبة كان لا يزال واضحاً على وجهه، اطمأن قلبي وانتظرت قليلاً، ثم سألته في حيرة كيف تعرض لهذه النوبة القلبية.. فسكت لحظات ثم أخرج من تحت وسادته خطاباً وناولني إياه...

فتحت الخطاب وبدأت أقرؤه.. كان الخطاب من زوجته التي كتبت له ما يأتي:

«زوجي ورفيقي العزيز!

أبعث إليك بسلامي...

الشكوى والشكاية من غير داع أو العراك دونما سبب ليس من طبيعي، وبطبيعة الحال، فأنا راغبة عادةً في حل قضايانا بالصبر والتفاهم، لكن تحملي للغبن والظلم له حدود، وحين تأكد لي أن موقفي المتسم بالصبر والتفاهم فاق كل حدود طاقتي، وأنه لا توجد إمكانية لإنهاء الظلم رحمت أدافع بكل قوة...

هذه الكلمات التي أمتدح بها نفسي ضرورية، ذلك لأنه خلال سنوات «الرفقة الشرعية» الثلاث الماضية، أقصد خلال سنوات الزواج الماضية لم نتقابل معاً أكثر من ثلاثة أشهر، ومن ثم لم تتيسر لنا فرصة لتبادل الأفكار أو فهم كل منا للآخر.. فبعد الزواج بعشرة أيام انتهت إجازتك، وسافرت إلى الرياض، وفي العام المقبل جئت في إجازة فكان زواج أختك، وحين كانت الفرصة لتكون معا بعد انتهاء احتفالات الزواج ومراسمه، وما إلى ذلك، انتهت إجازتك.. ثم كانت الإجازة المقبلة، فوهبتها لإصلاح البيت ولقاء الأقارب والأصدقاء، وأنا على يقين كامل من أن الإجازة القادمة سوف تضيع في لقاءات الأوبة والأصدقاء، وما شابه ذلك من أمور تعودت عليها خلال إجازتك السابقة.. ولن تتمكن من أن تجد وقتاً لسماع كلامي أو فهم حديثي، وسوف أجد نفسي ومن ثم مجبرة مرة أخرى على تنفيذ حكم (بالسجن مع الأشغال الشاقة) مدة سنة، ولهذا لا أريد أن أثير أحاديث كلها مرارة.. بل أكتب إليك أموراً واقعية وحقيقية..

لا أريد أن تسيء فهم ما أقوله لك.. إن الحياة التي عشتها في السنوات الثلاث الماضية كنت فيها لا أزيد عن كوني «خادمة» مثقفة متعلمة.. وحتى «الخادمة» تحصل على تسهيلات من نوع معين، تحصل

على راتب شهري، أوقات عملها محددة، يمكنها أن تذهب أحياناً إلى حيث تشاء، لكنني كنت خادمة مقابل «الطعام والملبس» إذا انتهت من العمل فلا يسمح لي بالخروج من البيت.. بعد صلاة الفجر يبدأ عملي، ويستمر هذا العمل حتى الليل، بل أحياناً أسمع أصوات النداء.. تصكّ أذني في حجرتي:

«قدم بعض الضيوف»..

نعم قدم بعض الضيوف فجأة، وأبدأ من جديد أدور في طاحونة العمل، وكنت أتذرع أحياناً بالتدريس لأخواتك؛ لأستريح بعض الوقت.. ونتيجة لهذا الضجر والملل والضيق المتواصل رجوت «حماتي» بكل رقة وخضوع وتذلل أن تسمح لي بالتدريس في كلية البنات القريبة من البيت، فأقامت الدنيا وأقعدتها.. وراحت توجه لي الكلام تكشف النقاب عن تعليمي وشخصيتي لدرجة أصابتني بالدهشة.. وفزعت حين ذكرت لي أنني أطعم خير طعام وألبس خير ملابس.. فماذا أريد بعد ذلك.. وأعتقد أنك تتفق معي في أن هذه الأشياء - سواء كانت طيبة أو غير ذلك - كانت ميسرة لي في بيت والدي.

في كل شهر، وحين كانت تصلنا «حوالة البنك» كانت حماتي أقصد والدتك تكيل لك الدعاء.. لكنك ربما نسيت أن في هذا البيت إنساناً آخر يدعوك يحتاج، بل يضطر أحياناً لبعض النفقات المالية.. ولقد أقلت الآن عن هذه المطالبة، ولكن إذا حدث ونسيت وطلبت مبلغاً ما أحتاج إليه، فإن الأذى يصل حتى إلى أعماق روحي.. أليس لي حق عليك؟ وفي الإسلام حيث تعاليم حقوق الوالدين يوجد أيضاً أحكام

خاصة بحقوق الزوجة..! فبعد الزواج تقع مسؤولية الزوجة على زوجها، ليس على أم الزوج وإخوته وأخواته، فالزوج هو ولي أمر زوجته.. ربما لا تعرف أيضاً أنك لا يمكن أن تبقى في بلد الغربة مدة معينة دون موافقة الزوجة..

هل حاولت مرة أن تشعر بضرورة التعرف إلى وجهة نظري فيما يتعلق بهذه الغربة المتواصلة؟ لقد راققت لنا فلسفة الحياة الهندوكية، لدرجة أننا تركنا التفكير بطريقة إسلامية، فطبقاً للعرف الهندوكي فإن عقيدة المرأة تحتم عليها أن تقضي حياتها في خدمة الزوج وجميع أهله، فإذا ما مات الزوج وجب على الزوجة أن تحرق نفسها، فلا يوجد هنا تصور لأن تبقى المرأة وحيدة.. بعد الزواج لا يكون أمام الزوجة من طريق سوى التحمل والصبر.. فمن حيث يتجه «هودج العروس» يكون خروج جنازتها.. ومن الناحية الشرعية لا توجد نصيحة صحيحة.. لكن الأمر يا سيدي، في الإسلام مختلف.. فالزواج في الإسلام عقد.. عقد بين طرفين.. فيه حقوق وواجبات، والفريقان مكلفان بأداء مسؤوليتهما على أكمل وجه وأحسن طريقة، ومع أن للزوج بعض الصلاحيات في بعض الأمور، لكن هناك على كل حال توازن وتناسب في حقوق كل منهما... وإذا لم تكن تصدق كلامي فاقراً الآيات المتعلقة بذلك في سورة البقرة والنساء وآل عمران النور.

ضع يدك على قلبك قليلاً.. وأخبرني هل تعيش في غربتك الحياة نفسها التي نعيشها نحن جميعاً هنا: حياة الدعة والراحة.. حياة البهجة.. ونحن هنا نتجمع أحياناً حول التلفاز نتمتع بما نشاهد وأنت: هل فكرت ذات مرة في شقائك وتعبك.. وما هو الهدف من ورائه؟ ومن أجل أي شيء..

ما هي الثروة التي جمعتها حتى الآن؟ كل عام يضيع منك ما يقارب ٤٠٪ من ميزانيتك في شراء الهدايا التي توزعها على الأقارب والأصحاب.. في النهاية لماذا تقدم للجميع الهدايا، بينما ترجع إلى غربتك لا يفكر أحد في تقديم أي هدية لك؟! لماذا هذا التعامل من طرف واحد؟!

لو حدث وانتهى عقدك واضطرت إلى العودة فجأة، فما عساک تفعل هنا؟ أقاربك يلتفون حولك.. يحيطونك بعطفهم ورعايتهم طالما أنت هناك في وظيفتك، وفي اليوم الذي يعرفون فيه أنك قادم إلى باكستان قدومًا نهائيًا فسوف أكون أنا فقط التي تنتظرك في المطار..

حين تأتي أختك وزوجها إلى البيت، نعاملهم معاملة «كبار الزوار VIP».. نحيطهم بكل رعاية.. نطبخ لهم أشهى أنواع الطعام.. نرتب لهم رحلات النزهة والفسحة هنا وهناك.. وترن في جميع أرجاء البيت الضحكات والنكات... أما أنا فيعاملونني معاملة الخادمت.. فهذه مهمتي: إعداد الطعام.. التنظيف.. كي الملابس وخدمة الجميع.. أهل البيت وضيوفهم وحتى ضيوف ضيوفهم.. هل هذه الحياة هي حياتي.. وإلى متى تمضي حياتي على هذا الشكل؟ أما سلوك حماتي أمك معي تجاه ابنتها وزوج ابنتها فهو سلوك يظهر منه التضاد والتباين الكامل... سبحان الله! حين يأتي والداي - وقل أن يأتيا - ليطمئنا علي، يسود البيت صمت مليء بالأسرار، ويكون علي أيضاً القيام بإعداد الشاي، فلا تكون أمامي فرصة للترحيب بهما أو الجلوس معهما، لا يعامل والداي معاملة الضيوف الآخرين وحماتي أمك تعطيهم إحساسًا بأنهم أشخاص غير مرغوب فيهم.. ما هذه العادات العجيبة؟! ولماذا هذا السلوك الذي يرمي إلى إذلال أهل الزوجة؟ هل هذا أمر شرعي؟!

لا علم لي بفلسفتك في الحياة، ولا أدري ما هي أفضلياتك في هذه الحياة؟ وما هو مفهوم مسؤوليات الزواج لديك؟

في اعتقادي أن للزوج هدفاً يتمثل في لقاء الطرفين معاً، وترتيبهم معاً لحياتهم العملية طبقاً لميولهم، وأنا لم أظهر هذه الرغبة، أقصد أن نقضي حياتنا في يسر شديد، وأن نرفع من «مستوى معيشتنا» عن طريق «الغربة» التي لا نهاية لها، مع أن تصور مستوى الحياة عندي يختلف عن تصور عامة الناس..

أنا لا أريد هذا الكسب الذي ثمنه وقيمه بعدنا، وانفصالنا عن بعض باستمرار.. ذلك لأن الحياة الزوجية لا يمكن أن تتحطم بسبب الرغبة في الحصول على بعض الأجهزة الكهربائية.. إنني أحاول بكل اتزان ومعقولية أن أطلعك لآخر مرة.. أنه من المستحيل أن أقدم المزيد من الخدمات من حيث كوني خادمة.. هذا أمر غير معقول بالنسبة لي.. يجب أن تعد العدة لتدعوني إلى السعودية في ظرف أربعة أشهر، وإلا جهز نفسك للعودة إلي.. وإلا فإنني من حيث كوني طرفاً فيما بيننا من عقد أحتفظ لنفسي بجميع الحقوق في إعادة النظر فيما يتعلق بعقد الزواج.

مع سلاماتي وأشواقي

شريكة حياتك

قرأت خطاب زوجة أحسن.. ودار رأسي.. واستندت على الكرسي.. وجلست.. فأنا أيضاً في بلاد الغربة.. من دون زوجتي.. منذ سبع سنوات.

obeikandi.com

ساحة العرض

للأديب: نجم الحسن رضوي

نجم الحسن رضوي كاتب قصة قصيرة، يعمل بالصحافة في إحدى دول الخليج العربي، يبحث عن وقائع في الحياة قلّ أن يعرفها سكان شبه القارة أنفسهم، وبخاصة في باكستان ويرى أن بعض الناس ممن يبيعون دموعهم يشاركون في جريمة بيع دموع الآخرين.. بل وإضاعتهم فوق حبات الرمال في الصحراء الواسعة..

إن الألم الذي تولده هذه القصة «ساحة العرض» بداخلنا يصيبنا بلوعة.. يضري أجسامنا ويؤذي أرواحنا.. لكن من ذا الذي يتلذذ ببيع أرواح الأبرياء؟!

هذا ما سنعرفه من مطالعة «ساحة العرض».

ساحة العرض:

نظر، فرأى آلاف الناس متجمعين، وفي لمحة واحدة مد البعير رقبتة الطويلة إلى الأمام، وحكّ قدميه في الأرض كمن يسنّ سكيناً بضربة واحدة، ثم انطلق مع صفوف الهجن كأسراب طيور صحراوية..

في ساحة العرض، حيث كان يجري سباق «الهجن» الموسمي راح الناس يصفقون، وفي الناحية الأخرى من السور الشبكي راحت جماهير محتشدة تشد بأصوات كأنها الموج، على دقات الطبول، ومعهم كانت النساء يتمايلن طربًا ينثرن شعورهن كرايات حريرية تخفق فوق رؤوسهن، يشددن من همم راكبي الهجن الصغار وعزائمهم.. وتراجع ميدان السباق تدريجيًا واختفى المتفرجون والمشجعون في سحب الغبار، وسقط الطائر في بحيرة بيضاء بعد أن قطع دورة في الصحراء، وقد انطوى داخل ذرات الغبار الذهبية للصباح الندي، ونصب الغبار فوقه خيمة.. وهناك ساد صمت رهيب، حيث ابيضت كل الأشياء..

أدار وجهه وأغلق عينيه أو ربما؛ فتحها؛ لأنه رأى الساحة كلها وقد امتلأت بالناس.. وبدأت صفوف الهجن تنطلق مسرعة.. مليحة.. صاعقة.. طرفان.. صرصر.. طغيار.. رعد.. سموم.. شمال.. وكانت تثير بأرجلها سحبًا كثيفة من الغبار..

«صاعقة... صاعقة» ظلت جماهير المتفرجين تصرخ:

«صاعقة... يا لك من فارس مغوار يا من تركب صاعقة!..»

وفجأة تناهى إلى سمعه صوت يقول:

«تنتظرك أكبر جائزة في السباق!..»

فمع نهاية حفل السباق كانت الجوائز تنهال كالمطر.. فراح يضرب

عنق البعير وينخزه مرددًا:

«لا تقلق يا أستاذ أحمد.. سيكون ترتيبها الأول دائماً»..

وراح يلوح بالجريدة، وكانت حركة الناقة التي تدب الأرض بأرجلها كصخرة تدفعه إلى الأمام تكاد أن تسحقه.. وتناهى إلى سمعه الصوت نفسه مرة أخرى:

«إنك لا تخاف منها» كان هذا الأستاذ أحمد المشرف على مربط هجن مولانا، وهو أيضاً معلم الصبية والفتيان راكبي الهجن..

في البداية كان يخاف من الاقتراب من الناقة.. هذا المخلوق العالي الضخم كالجبل مقابل الإنسان الصغير.. كان يوضع على ظهر الناقة، ويربط من وسطه، ثم يظل يصرخ ويصيح طالباً العون وهو ملتصق بسنام الناقة التي تهزول:

«أبي.. أبي.. الحقني يا أبي.. النجدة..!».

لكن أين أبوه من هذا المكان؟! فبينه وبين أبيه أراضٍ وبحار وفرق حتى في التوقيت والزمان..

وفي الليل حين يغطّ في النوم تتراءى له أحلام عجيبة مخيفة وغريبة.. يرى أحياناً أن الناقة تجري وراءه.. وأحياناً يترأى له كأن الناقة قد ركبت على كتفيه.. وأنه يحمل الناقة ويجري في ميدان السباق.. فيصرخ ويستيقظ ويظل مدة طويلة يبكي بصوت متهدج.. ثم يروح يغمغم ويتمتم:

«إني خائف.. لا يمكنني أبداً أن أركب الناقة.. لا.. لا..».

فيضحك الأستاذ أحمد، ويحاول أن يدخل الطمأنينة على قلب الصبي قائلاً:

- «لا تخف.. لا تخف..!».

وتصيب الصبي حيرة:

- «لا...».

فيقول الأستاذ:

- «وبعدين معك... إنها بداخلنا.. بداخل كل إنسان.. اسمع.. بداخل الإنسان كل شيء، بداخله أسد وبداخله صقر أيضاً، وبغير أيضاً».

فيسأله الصبي بتعجب شديد وحيرة:

«بغير أيضاً؟!».

«نعم ألا تدري كيف تعيش الرغبات داخل الإنسان؟ وكيف تعيش الأماني، البعير أيضاً رغبة.. رغبة عالية.. رغبة القوة.. والرغبة في المال.. تأكد يعيش في داخلنا جميعاً بغير..!».

وبالتدريج.. تقلص حجم الناقه حتى إن الصبي رأى ذات ليلة أنه يضعها في منديل ويضع المنديل في علبة طعامه.. وحين قص هذه الرؤيا على الأستاذ أحمد تهلل وجهه وابتسم، قائلاً:

- «ابسط.. لقد أصبحت الناقة في قبضتك وتحت سيطرتك.. كان بداخلك خوف، وقد انتصرت عليه.. الآن سوف يكون لك اسمك.. عليك أن تقتنص الشهرة، فالكثير يركب الهجن، لكن قلّ من يسيطر عليها..

لكن الصبي كان شجاعاً برغم جسمه الصغير وقدّه النحيل.. وكان يدرك تماماً كيف يتمكن من السيطرة على الناقة التي يركبها... كانت «صاعقة» تفهم جيداً إشارات، كانت تعرف متى تجثو على الأرض، ومتى تنهض، متى تزيد من سرعتها، ومتى تتطلق سريعاً كريح الشمال تلقي بخيمة ندها في الهواء..

كان الصبي بطل الأبطال بلا منازع.. كان الناس جميعاً يعرفونه ويحبونه، وكذلك كان مولاه أيضاً الذي يمتلك الكثير من الهجن وعنده الكثير من الصبية والفتيان من راكبي الهجن.. كان مولاه مسروراً منه إلى أكبر حدّ، فقد كان الصبي يعلي من اسم مولاه في كل سباق يحقق فيه الفوز..

في هذه المرة أيضاً كانت عيون الجميع مسلطة عليه.. وحين بدأ السباق كانت «صاعقة» في مقدمة الهجن.. وفي وسط السباق أيضاً كانت «صاعقة» تتقدم الجميع... وفجأة.. حدث زلزال، وانشقت السماء وسقطت كسفاً على الأرض... و..

والصبي.. فتح عينيه.. تراءت له من بين رموش عينيه بحيرة بيضاء.. راحت تتسع وتتسع من حوله.. كانت غرفة المستشفى.. الجدران البيضاء.. الستائر البيضاء والأسيرة البيضاء.. كان يرغب في

الحركة، يتحرق من شدة ما يعاني من ألم.. لكن الأربطة المثبتة على جسمه جعلته يرقد بلا حراك، وبلا إحساس، وكانت الأربطة البيضاء والأنابيب مختلفة الألوان، وقد أحاطت به من رأسه إلى قدميه، وبدأ الصبي يئن من الألم والوجع، وعندئذ صاح أحدهم، قائلاً:

«لقد أفاق الصبي.. نادوا على أبيه..!»..

- «أبي...» أراد الصبي أن يقول شيئاً لكن صوته لم يخرج.

وراح والد الصبي يذرف الدموع في صمت..

قال مولاه:

- «.. للأسف.. لن يتمكن الصبي من الاستمرار في الخدمة

عندنا، لكن لا تقلق بالنسبة لعلاجه، فجميع الترتيبات...».

ومسح والد الصبي دموعه بأكمام قميصه وتنهّد، وهو يقول:

- «مولاي.. بارك الله في خدماتك وأفضالك.. نحن خدامك..

كان ابني محظوظاً بالعمل لديكم.. حسناً إن لم يعد قادراً على العمل..

فلا تقلق سيدي، فعندي ولد آخر.. أصغر منه بقليل.. إذا أمرتم ف..!».

وفجأة بدأت موجات من الألم الحاد تقطع في الجزء الأسفل من

جسم الصبي كانت سيوفاً حادة تخزه بكل شدة.. وراحت تأوهات

حزينة تخرج من فمه.. فأسرع إليه الواقفون من حول سريره.. وتطلع

إليهم الصبي، وبدا له أن سباقاً سيبدأ من جديد..!

الوصية

للأديب: ستار طاهر

ستار طاهر -رحمة الله عليه- من الأدباء الذين أجادوا كتابة القصة القصيرة، وهذه القصة التي نقلها إلى العربية نشرت في إبريل عام ١٩٩٤م أي بعد وفاته، وهو يعالج عادة القضايا الفرعية التي قد يظن بعض النقاد أنه لا أثر لها على حياة الناس؛ لأنها كما نقول في العربية «لا تقدم.. ولا تؤخر..» إلا أنها في نظر الأديب تكون ذات قيمة.

بطريقة ضمنية يعرض الأديب لقضايا أخرى تمس الحياة الاجتماعية والظروف المحيطة.. ترى ماذا كانت قضية الأديب ستار طاهر؟ وماذا كانت وصيته؟!

الوصية :

قال الشيخ شاه نقشبندي: الدنيا في الأصل برزخ^(*)، فالإنسان يبدأ الممات من اليوم الذي يولد فيه، وتبدأ أنفاسه تتردد بداخله لأول مرة،

(*) عالم البرزخ: هو ما بين الحياة الدنيا ويوم القيامة، وليس كما في القصة (المراجع)..

ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ وَّرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وينتهي موته مع آخر نفس له في عالم البرزخ هذا.. ويقول الشيخ: حين يبلغ الإنسان سن الأربعين، فإنه يكون بذلك قد طوى في هذه الدنيا أربعين سنة من مرحلة الموت في عالم البرزخ.. وأنا يا سيدي، لا أدري كم مرة مت؟ وما هي المدة الباقية على استكمال موتي؟

والحقيقة أنني في الأصل لا أدري كم سنة مرت علي؟ وما هو عمري الأصلي؟.. كم عمري المسجل في الأوراق؟.. ومنذ متى وأنا في عالم البرزخ؟.. منذ كم سنة..؟ لقد ابتليت بمرض لا يمكن وصفه وليس له اسم.. بالتأكيد لا بد أن يكون لي نجم.. نجم سعد أو نجم نحس.. نجم والسلام.. لكنني لا أدري؛ لأنني أعرف أن تاريخ ميلادي المدرج في الأوراق الرسمية ليس تاريخاً حقيقياً!

لقد أصبحت بما أنا فيه، حين كنت أجري مقابلة مع لاعب «الكريكت» العالمي المشهور، وكان اللاعب كلما ركز على بيان أن أسباب نجاحاته هي كفاحه المتواصل وتدريباته الشاقة أوضح أنه منذ اليوم الأول الذي جاء فيه على وجه الدنيا وهو محظوظ، فيوم مولده كان يوم سعده.. وقال: إنه شخصياً يعرف العديد من الناس ولدوا في اليوم نفسه الذي ولد فيه، وكلهم بلا استثناء أثبتوا أنهم أناس مشهورون وناجحون.. وأضاف أيضاً أن الناس الذين ولدوا في ذلك اليوم يتمتعون بالصحة وطول العمر..

كنت محظوظاً جداً بهذه المقابلة، وحين انتهت أشعلت سيجارة، وأخذت نفساً عميقاً طويلاً ورحت أفكر وأنا أتطلع إلى سحب الدخان المنبعث من فمي وأنفي على حد سواء: ما هو تاريخ ميلادي؟!

هذا التفكير وهذا السؤال وضعاني في سلسلة طويلة ومؤذية لنهاية لها، ومنذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا لم أتخلص من هذا الأذى..

تاريخ ميلادي مشكوك فيه.. جعلتني هذه الحقيقة مريضاً..

أنا أعرف أنني ولدت في إحدى مدن الهند قبل قيام باكستان، وأعرف أنه في ذلك الزمان كان إذا حدثت ولادة في بيت ما قامت القابلة أو أحد من أهل بيت المولود بالذهاب إلى مكتب التسجيل، فيسجل اسم المولود ويعود ويحصل بذلك على شهادة ميلاد الطفل من هذا المكتب، وأعرف أن مثل هذا يحدث أيضاً في باكستان..

في ذلك الزمان، وفي القرية التي كنت أنتمي إليها لم يكن الاحتفال بأعياد ميلاد الأطفال رسماً أو عرفاً راجح بين الناس، إذ لم يحتفل أحد أبداً بعيد ميلادي..

وذات يوم ألبست ملابس جديدة نظيفة منسقة ومرتبعة على جسمي، وأخذني أبي وذهب بي إلى المدرسة، وفي المدرسة ملأ استمارة لم أكن أستطيع قراءتها، فلم يعلمني أحد في بيتي القراءة أو الكتابة، وكانت أمي من جملة الأميات في قريتي لا تعرف الكتابة ولا القراءة.. وألحقت بالمدرسة وهناك أيضاً أدرج تاريخ ميلادي..

كنت في الصف الثاني بالمدرسة الابتدائية، حين تأسست باكستان.. ثم ذهبنا إلى باكستان.. في باكستان لم ألحق بأي مدرسة؛ ذلك لأن أبي انتقل إلى الرفيق الأعلى.. وكان لأحد أقارب أمي أخ، فذهبنا لتقييم عنده.. وذات يوم وبناء على إصرار أمي ألحقت بالمدرسة..

في المدرسة، وحين كانوا يكتبون الاستثمارات نظروا إلي،
وسألوني:

هل تتذكر تاريخ ميلادك؟

وحين عجزت عن الرد راحوا ينظرون إلي يتفحصونني، وأخذوا
يقولون كلاماً غير مفهوم، ثم كتبوا تاريخاً ما في خانة ميلادي.. وكان
هذا هو التاريخ الذي استمر يكتب في شهادتي بعد التخرج في المدرسة
الإعدادية والثانوية، وحتى في بطاقتي الشخصية ٣ أغسطس ١٩٤٦ م.
وتخرجت في الجامعة مع تاريخ ميلادي الافتراضي القياسي الزائف،
وأصبحت موظفاً في مكتب حكومي ورقيت لأصبح رئيساً للموظفين..
رئيساً من الرؤساء المهمين..

لكن.. لا.. لا بد أن هناك وثيقة مكتوباً فيها تاريخ ميلادي الذي
لا يطابق تاريخ ميلادي الافتراضي القياسي المزيف.. كنت أدرس في
الصف الثاني حين انتقل والدي إلى جواربه، ثم بقيت مع أقاربي
أقضي حياتي في خضوع وخنوع وأدرس أيضاً.. وحين وجدت وظيفة
تزوجت عن طريق أحد الأصدقاء.. قالت لي أم هذا الصديق تخبرني
عمن ستصير زوجتي:

عمرها عشرون.. اثنان وعشرون...

وكنت أفكر أنتي في الثلاثين، هذا بينما أخبرت أم صديقي أهل
عروستي بأنني في السادسة والعشرين، وحين تم الزواج، كتبوا في قسيمة
الزواج أن عمري ست وعشرون سنة وأن عمر العروس عشرون عاماً.

بالنسبة لتاريخ ميلادي الافتراضي كان عمري ثلاثين عاماً، وكانت عروسي لا تقل عن أربعة وعشرين.. وبقينا معاً نعيش هذه الكذبة بطريقة بارعة.. فلم يحدث بيننا سوء تفاهم على الإطلاق نتيجة لهذه الكذبة، بل لم يحدث أي ذكر لها بيننا، فتحن كما كنا، وكما كانت أعمارنا، كنا نعيش معاً..

أما صديقي الذي عرفني على الشيخ شاه نقشبندي، فكان صديق عمل، إذ كنا نعمل معاً في مكتب واحد وكان صديقي منير خان من محبي الشيخ، وممن يلازمونه أيضاً ولهذا طالما يكثر الحديث عنه.. وحين جاء الشيخ إلى بلدتنا لعدة أيام حصل لي أيضاً شرف مقابلته..!

لكن عقلي وتفكيري كانا قد أصيبا قبلاً بلوثة، فقد أجبرتني المقابلة التي أجريتها مع لاعب «الكريكت» المشهور سابق الذكر على التفكير في عمري الأصلي.. كم عمري؟! وحين قرر الشيخ شاه نقشبندي في إرشاداته أن هذه الدنيا هي عالم البرزخ وأن عمر حياة الإنسان هو في الأصل عمر الموت.. نبهتني فلسفته هذه وأدهشتني، بل أفزعتني..

كنت أعلم كم بقي على مدة إنهاء خدمتي الوظيفية؟ وكم يوماً بقي على تقاعدي؟ لكني لم أكن أعرف ما هو عمري الحقيقي، وطبقاً لأقوال الشيخ شاه نقشبندي كم المدة التي قضيتها من مرحلة الموت في عالم البرزخ هذا..

ورحت أفكر لو أن أخوالي زادوا في عمري، حين ألحقوني في المدرسة في باكستان، فهذا يعني أن مدة خدمتي الوظيفية أصبحت

قصيرة.. لكن كم سنة؟ سنة.. سنتان.. ورحت أطمئن نفسي.. ربما كتبوا تاريخ ميلادي أو جعلوا عمري أقل بنصف عام.. لكن كان هناك تساؤل لم أجد لدي جواباً له.. بل لم أجد له إجابة في أي مكان..

ما هو عمري الأصلي؟! ما هو تاريخ ميلادي؟!

لم أكن أبداً أهتم بهذا الأمر من قبل؟ مع أنه منذ سنوات في كل جريدة، وفي كل مجلة كنت ألاحظ صفحة «برجك هذا الأسبوع» و«حظك هذا الشهر» ولكن حين بدأت أخوض في دوامة البحث عن عمري الأصلي، وتاريخ ميلادي الحقيقي أصبحت هذه الصفحات بالنسبة لي كأنها إعلان عن عجزتي.. إعلان بأنني معوق.. لم أكن أعرف ما هو برجتي وما هو نجمتي؟! فقد كنت على يقين من أن تاريخ ميلادي خطأ، ولهذا لم أكن أتمكن من معرفة «قسمتي ونصيبتي»..!

وراح هذا السؤال يدخل عقلي يركبني كعفريت شرس.. في البيت وفي المكتب.. فأصبحت سريع الغضب، سريع التهيج، وذات يوم قالت ابنتي التي تدرس علم النفس في الليسانس لأمها:

يبدو أن أبي مصاب بمشكلات نفسية..

قالت هذا، وهي تهمس في أذن أمها.. ولكنني سمعت ما قالتها، فبدأت أصيح وأصرخ، ورحت أتفوه بما يرد على لساني من كلمات لا معنى لها.. كنت باختصار أهذي.. وفي الليل سألتني زوجتي بعطف شديد:

ماذا أصابك هكذا فجأة؟!

فأجبتها:

لا أعرف تاريخ ميلادي!

وشاهدت الحيرة تبدو على وجهها فأغلقت عيني، أما هي فبعد سماعها هذه الإجابة المحيرة لم تعد توجه لي أي سؤال.

أما ابني أرشد الذي يقيم مع زوجته وحده، فقد زارنا ذات يوم وراح يحدثني في موضوعات مختلفة، وحدثني ضمن ما كان يحدثنا به، فقال:

ماذا يقلقك هذه الأيام يا والدي؟ أخبرني، فربما أمكنني مساعدتك..

فهمت أن أمه وأخته أخبرتاها عن حالي.. فأجبتة:

«لا شيء» أجبتة دون مبالاة.. «إنني قلق فيما يتعلق بتاريخ ميلادي» ونظر إلي في حيرة وتعجب فأخبرته باختصار عن الأمر كله، وقلت له:

اسمع، إن تاريخ ميلادي المكتوب في جميع الوثائق والشهادات غير صحيح.. وظل يصغي إلي باهتمام، ثم قال:

أبي.. فهمت.. بعد قيام باكستان عدد لا يحصى من الناس جاؤوا هنا وحالتهم كانت مثل حالتك.. كم من الناس كتبوا تواريخ ميلادهم بناء على قياسهم، فلماذا كل هذا القلق الذي أصابك؟!.. لك أن تتصور تاريخ ميلادك المكتوب تاريخًا صحيحًا..

وسكت. فأضطرب لسكوتي، ثم قال:

أبي.. لماذا تجعل «من الحبة قبة» من دون داع؟!

أرشد أنت لا تستطيع أن تفهم هذا الأمر..

ورجع أرشد إلى بيته قلقًا مضطربًا.. يائسًا..

ورحت أتدبر كل حيلة؛ لأتماسك ورحت أطمئن نفسي.. الناس الذين يعرفون حقيقة تاريخ ميلادهم، هل يؤثر هذا التاريخ على حياتهم؟ لا بد أن الأساس والأصل هو وجد الإنسان واجتهاده وعمله المتقن.. لكنني أجد نفسي أفكر في اتجاه آخر معكوس.. هل هذا أمر عادي؟ هل هذا أمر بسيط ألا يعرف الإنسان في أي يوم ولد؟.. أليس عن طريق معرفة تاريخ الميلاد يعرف الإنسان نجمه ويعرف الكثير عن قسمته ونصيبه؟!.. ثم أقوال الشيخ شاه نقشبندي بأن عالم البرزخ في هذه الدنيا هو سنوات موت الإنسان.. وكأن هناك دودة راحت تخرق دماغي، وأنا في كل لحظة أغرق نفسي في تعقيدات وتعقيدات حتى أصابني المرض.. كان مرضي من النوع العجيب والغريب في الوقت نفسه..

حالة من الصمت الطويل.. ثم ظهور حالة من الهيجان.. أخذت إجازة من العمل.. ورقدت في البيت لا عمل لي سوى التدخين.. وهناك فكرة واحدة لا يوجد سواها تدور داخل رأسي.. وذات يوم رحلت أقهقه بالرغم مني وأقهقه.. وفكرت.. حين ألفظ أنفاسي الأخيرة في عالم البرزخ هذا سوف يقول الجميع إنني مت وأنا في الثامنة والستين،

وسوف يكذبون جميعاً.. وهجت وأنا أتصور الجميع يكذبون، ثم انتابتني نوبة ضحك على الرغم مني..

تجمع من في البيت.. راحوا يحملقون في وجهي.. وعلى وجوههم دهشة وحيرة واضطراب.. كانت الدموع ظاهرة بوضوح في عيني زوجتي برغم محاولتها إخفاء دموعها، وفجأة حبست قهقهاتي في حلقي، وأغلقت عيني.. صمت طويل.. بعدها صدرت أصوات الهمس، ثم عمّ السكون..

وفي يوم وجدت نفسي حزيناً تعساً.. رحت أقول لنفسي: أنا إنسان لا يعرف متى ولد؟ ومن ثم لا يعرف عمره الحقيقي.. لقد قضيت حياتي كلها حتى الآن مستعيناً بتاريخ ميلاد افتراضي زائف..

وفكرت: حين أموت سوف يدفنني هؤلاء الناس.. سوف يضع ابني لوحاً على قبوري.. سينقش عليه آيات من القرآن الكريم، ثم تاريخ ميلادي، وتاريخ وفاتي.. تاريخ وفاتي صحيح بالتأكيد، لكن تاريخ ميلادي خطأ..

في تلك الليلة طلبت رؤية ابني، وقلت له:

«انظر! هذه وصيتي: حين أموت لا تكتبوا على لوح قبوري تاريخ ميلادي.. لا تكتبوه.. هل تعدني بذلك.. أقسم بالله على ذلك! فهذه وصيتي..».

obeikandi.com

كرب

للأديبة: سلمى ياسمين

سلمى ياسمين من الأدبيات اللاتي يعبرن بصدق عن نبض الحياة في شرايين المجتمع الباكستاني، وقد حدثت وسافرت خارج باكستان، فأتيح لها الفرصة لدراسة القضايا الاجتماعية والاقتصادية للمهاجرين من أهل وطنها، فتألمت وحزنت لما أصابهم نتيجة لانقطاع الصلة بينهم وبين بيئتهم الثقافية والحضارية والدينية.

وقصة «كرب» وهذا هو العنوان بالأردية - إذ الكلمة مستخدمة بمعناها نفسه في العربية وتخصص المعنى هنا للحزن والألم الشديد يخنق الأنفاس - قصة من النوع الذي يعالج ضياع الإنسان المسلم في متاهات بلاد الغرب، ويعالج تدني قدسية الروابط الأسرية، وتوضح القصة كيف يعيش المهاجر في بلاد الغرب حياة - تحكمها المادة - على مستوى حيواني محض، والقصة قبل هذا وذاك تجعل المسلم يشعر بالاعتزاز بدينه وبنفسه وبوطنه وبجميع قيمه الغالية.

كرب:

كنت أنزل في فندق على طريق «أيرلز كورت» وفي الصباح تناولت طعام الإفطار، وخرجت إلى محطة «مترو» الأنفاق القريبة؛ لأركب المترو، وأنطلق حيث أريد..

وأمام شباك التذاكر وقفت امرأة هدتها السنون والأيام، قمحية اللون، مليحة القسمات، حلوة التقاطيع، ترتدي ما يشبه «الجيبة» أي التنورة، وعلى رأسها عقدت منديلاً كبيراً أخفى شعرها تقريباً، وبدت لي كامرأة تعمل في الإرساليات التنصيرية في مستشفيات بلادنا وجاءت هنا لتجلس في هذا الشباك في مدينة لندن.. حين رأته علت شفيتها ابتسامة صدرت من داخلها، فزاد يقيني بأنها لا بد من «بلدياتي»..

في ذلك اليوم كان عليها أن تذهب لعمل ما... فاتفقنا على أن أنتظرها عند محطة مترو الأنفاق، على أن تقابلني ونمضي معاً نتمشى في شارع «أكسفورد»... ومحطة مترو الأنفاق الواقعة في طريق «أيرلز كروت» لا تقع تحت الأرض، بل هي كبقية محطات السكة الحديدية..

حضرت في الساعة الحادية عشرة، ووقفت أنتظرها يتخبطني القادم والذاهب في هوجة الزحام، وساورني قلق واضطربت حين فكرت في الذهاب وحدي إلى المصعد الشبيه بالغرفة المغلقة؛ لأن المصعد كان يمتلئ في التوبحشد المسافرين.. في الحقيقة لندن مدينة عجيبة، يترأى لك في شوارعها كل أنواع البشر إلا الإنجليز: السود

والصفر والشقر والبيض وهلم جرا.. وبحسابات لندن كان صيف هذا العام شديد الحرارة مما جعل الناس يخفضون من ملابسهم، فظهرت سواعد الرجال وأرجلهم إلى الفخذين، وحتى صدورهم وظهورهم كانت عارية لا يسترها شيء.. وبدأت الأشكال البشرية واضحة - فاضحة - بأكملها.. يا لها من رعونة! ودهشت وأنا أشاهد ألوان الشعر الذي يعلو رؤوس البشر: برتقالي.. ذهبي ملتهب.. وردي على جميع الألوان، وبجميع الأشكال: المسترسل والمعقوص والمعقود.. وفي الأذان والرقاب وعلى السواعد كانت هناك أنواع متباينة الأشكال من الأقراط والحلقات والعقود والسلاسل.. ولاحظت أن هناك واحداً من كل ثلاثة شبان يرتدي الملابس السوداء.. و«البنطلون» واسع أشبه بالسروال، والقميص منتفخ، والأكمام شمرت حتى مفصل الذراع... هذا إن كان هناك أكمام.. بينما الأظافر مطلية باللون الأسود والعيون مظلمة بالأسود، وأحمر الشفاه تحول إلى اللون القاتم القريب من الأسود.. يا إلهي لم تعد عيناى بقادرة على التمييز بين الفتى والفتاة وكأنني في غابة تعج بأبناء «اللورد دراكولا» وبناته!

أخذت أروح وأجىء مع أمواج المسافرين هنا وهناك، وإذا بالمرأة المكلفة بمراقبة التذاكر في المحطة تشير إلي، اعتقدت في البداية أنها تشير إلى أحد غيبي، فتلفت حولي، إلا أنها ظلت تشير إلى ناحيتي وتحيرت قليلاً وترددت قبل أن أذهب إليها.. فقالت لي بلغة أردية «مكسرة»:

«هل أنت مسلمة؟».

«نعم».

«باكستانية أم هندية؟ أظنك باكستانية!».

«ظنك في محله.. أنا من باكستان».

«هذا البنطلون الذي تلبسينه ماذا تسمينه؟!».

«شلوار...».

«سلوا (نطقها بالسين) إنه يعجبني كثيرًا، كيف تلبسينه؟ أريني

كيف تلبسينه؟».

قلت في نفسي: لعلها تحاول أن تمزح معي، فهذه الإنجليزية لا

تعرف من الشلوار اسمه ولا رسمه...

«كيف يمكنني أن أريك هذا أمام كل هؤلاء الناس».

«تعالى هنا داخل الكابينة».

ونجحت بصعوبة في إفهامها كيف تلبس الشلوار..

«إنى أتوق من كل قلبي إلى ارتداء هذا الزي، كانت جدتي ترتديه

في زمن ما...».

«يمكن أن ترتديه إن أعجبك».

فأخذت نفسًا عميقًا، وقالت لي:

«لكني مكرهة.. فأنا أعيش هنا، ولذا يجب أن ألبس زي هذه البلاد،
 أه زوجك ليس معك اليوم أنا أشاهدكما معاً كل يوم، إنك تضعين
 (إيشارباً) على رأسك أيضاً، لهذا تأكدت من أنك مسلمة.. هل تعرفين
 (الشهادتين)؟»

«كل مسلم يعرف النطق بالشهادتين».

وتحيرت كثيراً ماذا يهم هذه المرأة النصرانية من نطق
 الشهادتين؟!«

«أسمعيني إذا الشهادتين».

«لماذا؟!»، سألتها بامتعاض.

«لأنني مسلمة أيضاً..».

«أنت..؟».

«نعم.. ألا تصدقيني.. إن قلبي يتوق لسماع الشهادتين».

فنطقت أمامها بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن
 محمداً رسول الله.. وبدت وكأن عينيها امتلأتا بالدموع.. فراحت تعبت
 بأصابعها داخل شعرها القصير.. ثم قالت:

«قضيت حياتي كلها هنا.. فنسيت الشهادتين تدريجياً.. إني

مسلمة.. نعم أنا مسلمة».

وانتابني شعور بالاهتمام بها، فسألتها:

«هل أنت باكستانية؟».

«لا يا عزيزتي.. لا.. أنا لست باكستانية.. لقد هاجرنا إلى هنا من أفريقيا الشرقية، بعد أن طردت الجالية الآسيوية من هناك».

«فكيف إذا تعرفين الأردنية؟ الأردنية لا يتكلمها أحد في أفريقيا الشرقية».

«صدقت.. لكن أبي وجدي من (الكجرات) أبي كان شيخاً فقيهاً يعلم الناس شعائر دينهم، فقدم والدي بعد أن اصطحب جدتي معه إلى أفريقيا وتزوج في أفريقيا أيضاً، كان أبي رجلاً تقياً.. كان طيباً.. لقد علمني النطق بالشهادتين، وعلمني أموراً كثيرة من أمور الدين، والآن نسيت كل شيء».

وانقبض قلبي..

«ثم ماذا حدث؟» سألتها ببرود.

أنهمكت في الحديث معي والمسافرون يمضون بيرزون لها بطاقات اشتراكات في المترو الملونة والتذاكر، وهي تهز رأسها دون أدنى اهتمام..

«آه ثم ماذا كان؟ توفي أبي، وتوفيت جدتي هناك، وجئت مع إخوتي إلى هنا، تزوجت بشاب عربي مسلم، كان قاسياً لم يكن يطعمني، بل كان يأخذ راتبي كله، إذ كنت أعمل».

«هل يمكن أن يحدث هذا في لندن أيضاً؟».

«لماذا؟ أليس في لندن بشر ككل البشر؟.. هنا أيضاً يحدث كل شيء.. جاءني منه ولدان.. الحمد لله كلاهما مسلم.. ثم طلقني وتزوج بأخرى، وأخذ مني الولدين، فوجدت نفسي فجأة وحيدة بلا مأوى وبلا عمل.. فعشت على راتب الإعانة الاجتماعية.. لم يفكر في أحد على الإطلاق، فأخوتي كانوا مشغولين بأنفسهم.. لم يفكر أحد منهم في أن يطيب خاطري بكلمة.. فجأة وجدت نفسي وحيدة تمامًا، والمرأة في النهاية امرأة تحتاج إلى عون الرجل.. إلى محبته وإلى حمايته..».

وسكتت وراحت تفكر قليلاً، ثم قالت:

«إنني أرتاح إليك كثيراً.. أرتاح كثيراً إلى كل من هو مسلم.. ففي النهاية أبي الحبيب كان مسلماً.. إنني أستريح لفكرة ارتداء هذا الشلوار والقميص.. لكن للأسف لا يمكن أن أفعل ذلك، فلم أعود على ذلك، كما أن هذا الزي لا يتماشى ولا يتناسب مع الوظيفة».

«هل تسكنين بمفردك؟».

«حين اعتصرني الألم ونهشتني الوحدة.. اهتم بي رجل.. طيب جراح الألم ومسح دموع الأسي، وشد من أذري، وكنت آنذاك مريضة، فقام على خدمتي، وتزوجته في النهاية.. لم يطلب مني تغيير ديني، أو تغيير اسمي.. فأنا حتى الآن (زينب) أخذني من أهلي، ولكن لم يطلب مني أن أعبد الأصنام، أو حتى ألبس كالهنادكة، في بيتنا أصنام الآلهة، ولكني لم أسجد لها أبداً ولم أعبدها، تمر علينا أعياد الهنادكة

واحتفالاتهم، فأشترك فيها، ولكني أتمتع بكامل حريتي.. أفعل ما أريد، أكل اللحم خارج البيت.. فزوجي يحبني كثيراً.. فماذا عساي فاعلة؟! الجميع يعرف أنني مكرهة، ولهذا لم يفضب مني أحد، فأنا مسلمة.. أنا لا أعبد الأصنام.. أنا أكل اللحم».

«هل عندك منه أولاد؟».

«عندي ولدان وبنت.. كلهم كبروا الآن».

«مسلمون؟».

«لا.. لا.. كيف يكون ذلك.. هم غير مسلمين هم على دين أبيهم، كما يكون الأب يكون الأولاد، أنا كنت مكرهة، هذا الهندوكي الذي يحبني أفضل من الزوج المسلم الظالم.. أليس كذلك؟! كنت أحتاج إلى معين... الله يعرف كل شيء، الله سيسامحني.. ولعلك لن تعجبي إذا عرفت أن إخوتي من المسلمين وأولادي المسلمين غضبوا مني كثيراً، قالوا: إنني تزوجت من هندوكي، ولهذا فأنا كافرة، وإنني سوف أحرق بعد أن أموت، وأظل محترقة أبداً.. فخفت وارتعبت وظللت أبكي، وأبكي فرق زوجي لحالي ووعد بأن يسلم جسدي بعد موتي إلى أهلي من المسلمين حتى أدفن كما يدفنون.. وحينئذ استرحت واطمأن خاطري وهدأ بالي وإلا فكيف وبأي وجه أقابل أبي يوم القيامة.. الآن أهلي من المسلمين استراحوا، وأنت أيضاً لا تقلقي فزوجي مقيم على وعده ولا بد أنه سيسلم جسدي بعد وفاتي لأهلي.. لن يحرقني كما يفعل الكفار بأجساد موتاهم».

وبينما هي تتحدث إذا بشاب قادم علينا..

«هذا ابني (مول تشند) له شقة خاصة به يؤجرها للطلاب،
ويحصل على عائد طيب».

عقد الشاب يديه أمامه، وحياني بتحية الهنادكة (نماسته).

«لا تقل: (نماسته) أنا مسلمة يا عزيزي...».

وتمنيت من كل قلبي أن أهرب بعيداً بعيداً.. أن أهرب بعيداً عن
هذا الوحل البشري.. بعيداً عن (مول تشند) و(نهال تشند) و(أشا
ديوي) الذين ولدوا في بيت (زينب).. وظلت أنفاسي مختنقة بداخلي،
وأنا أردد بصوت مكتوم: يا إلهي! ما هذا الكرب!!

obeikandi.com

الابن والابنة..

للأديب: شمس نعمان

شمس نعمان من كتاب القصة القصيرة المعروفين، برع في فن القصة واستخدم الرمز في كتاباته، وقصصه تدور حول المجتمع المحيط بنا وخلفيتها هي أيضاً المجتمع نفسه، وهو يجعل من الحقيقة مدعاة للحيرة وقصة (الابن والابنة واللّه) توضح مأساة المغتربين في كل مكان في باكستان، أو مصر أو في السودان أو في غيرها، وهي توضح أيضاً بعد قليل من التمعن عناصر محبة الثروة المتغلغلة في داخل الإنسان، تلك العناصر التي لو غلبت على صلوات الدم، وصلات الرحم فإنها توجد مأساة أخرى.

الابن والابنة..

كان مدير البنك يود من كل قلبه أن يأخذ من الحارس بندقيته، فيطلق عليه جميع الطلقات التي وضعها في حزامه الذي تمنطق به، وكان هذا على الأقل هو العقاب الذي ودّ لو وقع على الحارس جزاء له.. ففي الوقت المحدد تماماً لانتهاؤ الدوام، وبدلاً من أن يغلق البوابة الرئيسية للبنك، أخرج علبه الدخان واتجه حيث أريكة «كل خان»..

بينما دخل ثلاثة من العملاء إلى مكتبه، وراحوا في نقاش حاد وعراك بالكلمات.. وفقد صوابه وكان قد فقدَه أصلاً منذ الصباح... ففي الصباح دارت الأمور كالعادة على ما يرام وطبقاً لما يريد، وفجأة تذكر ساعة يده التي لم يجدها في معصمه، لقد وضعها في مكان ما ونسي، وهناك كانت زوجته صافيناز قد أعدت له طعام الإفطار ووضعت على الطاولة، أعدت له طبقاً لرغبته البيض المقلي والبليلة بالحليب.. وقبل ذلك بقليل وحين كان يعد العدة للذهاب إلى البنك كانت صافيناز تثبت له أضرار معطفه، وكانت قد اعتادت على القيام بذلك كل صباح، أما هو فقد اعتاد بدوره أن يمزح معها ويقبض بشدة على أناملها، قائلاً:

«صافينا، إنني جد سعيد داخل قيدك، فلا تحرريني منه، لو حدث هذا فاجعليني أسيراً في قلاع عينيك...».

وتجيبه صافيناز بدلال، فيضمها إلى صدره في حب وحنان.. كانت صافيناز تعرف أن ما يقوله يخرج فعلاً من أعماق قلبه، فلم يميض على زواجهما إلا أشهر معدودات، ومع هذا فقد كانت تفكر وتحدث نفسها: «.. تلك الحياة التي عشتها من دون جاويد.. أه! كم كانت خاوية لا طعم لها.. كانت كبيت في خرابة ليس فيه مصباح...».

بعد أن انتهت صافيناز من تثبيت أضرار المعطف تذكر جاويد ساعة يده التي لم يجدها في معصمه.. ثم ماذا حدث؟ قامت القيامة.. فقد قرب وقت الذهاب إلى البنك والساعة لم توجد بعد، البيض المقلي على المائدة برد، فاستشاط غضباً وراح وهو على هذا الحال من الهيجان يحرك عينيه هنا وهناك، ووقفت صافيناز المسكينة، وقد

أصابها الرعب، فقد كانت غارقة في سحر المحبة، تطير فرحاً فوق النجوم، وفجأة وجدت نفسها، وكأنها ارتطمت بالأرض.. وأين يا ترى وجدت الساعة؟! لقد أخرجت من جيب معطفه!!

«ألم تستطيعي أن تبحثي عن هذه الساعة التعسة في جيب معطفي؟»

في البداية امتلأت عيناها بالدموع، لكنها لم تدر لماذا انفجرت ضاحكة، واستمرت في الضحك، أما جاويد فقد شعر وكأنها تتهمه بالحمق فصب جام غضبه عليها، ولكنه حين نظر إليها شعر وكأن ربيع الأزهار قد حل على بستانها... وكان الوقت يمر بسرعة والبيض المقلي، هذا البيض الذي برد بث في ربيع الذي أضاء كالصباح سماً، فلم يدر ماذا حدث له.. حمل طبق البيض المقلي وألقاه بشدة على الأرض:

«ألم تتعلمي كيف تعدين الفطور بطريقة طيبة؟»

«عليك أن تأتي بمن تعد لك الفطور بطريقة طيبة».

كان جهاز عرس صافيناز يتكون - ضمن محتوياته - من أطباق غالية جداً، بالإضافة إلى السجاد العجمي النادر لهذا شدها الذهول واحتواها الغضب، فكان جوابها سريعاً، إذ شعرت أن الطبق الذي تحطم لم يتحطم على السجاد، بل تحطم على جسدها..

- «نعم سوف آتي..».

قال هذا واتجه من فوره دون تناول الإفطار إلى البنك، وقد استمر في البنك طوال اليوم، لكنه كان ينظر إلى عقارب الساعة المعلقة على

الحائط أمامه في مكتبه.. كان ينظر ويترقب: متى تشير العقارب إلى الساعة الواحدة؟ ومتى يصل إلى البيت؛ ليصالح صافيناز؛ لقد خامره إحساس بأن صافيناز ظلت قلقة مضطربة طوال اليوم، بل ظلت تبكي، وكان هذا الإحساس يؤذيه فلا يشعر بالراحة.. كان يمكنه أن يعود إلى بيته مبكراً، لكن اليوم أول الشهر ووجوده في البنك ضروري جداً، فوجود المدير لازم من أجل التعامل مع أصحاب الاعتمادات والحسابات، كما أن التعامل في صرف النقود يكون أول الشهر أكثر من الأيام العادية.. لكن هذه المسرحية المضحكة العجيبة حدثت فجأة، فحين كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة والدقيقة السابعة والخمسين، وحين بدأ جاويد يللم أوراقه ويعطي أوامره للصرافين بترتيب الأوراق المالية تمهيداً للتوقف عن العمل بعد ثلاث دقائق إذا بهؤلاء الثلاثة يدخلون عليه فجأة، وكأنهم ساعة حطت عليه من السماء.. فكاد دماغ جاويد أن ينفجر، وتمنى من كل قلبه أن يفرغ في الحارس جميع رصاص البندقية التي يحملها، فلو كان هذا الحارس الجلف موجوداً في موقع خدمته لما تمكن هؤلاء من دخول مكتبه في هذا الوقت.. ولكن ماذا يمكنه أن يعمل الآن سوى إعداد نفسه لتمثيل دور موظف البنك النموذجي، فيستمع إلى حديثهم، ويصفي إليهم بكل أدب واحترام.

كان من بين هؤلاء امرأة سمينة جداً شعرها مجعد بطريقة تدل على أنها زادت من استخدام أسطوانات لسي الشعر في صالون تجميل، كانت هذه المرأة قصيرة القامة، لكن صوتها كان ضخماً، وكانت نبراته حادة ومخيفة، وبينما تتكلم كانت تدير عينيها الصغيرتين هنا وهناك بطريقة كلها مكر ورياء، وكانت رقبتها قد التصقت بكتفها، وكأنها دكت فيهما

دكاً، وحول هذه الرقبة وضعت سلسلة من الذهب مع عقد من اللؤلؤ، كان كفاها غليظتين، وفي أصابعها الصغيرة غاصت خواتم الذهب المطعمة بالأحجار الكريمة وفي كل معصم وضعت ست «أساور» من الذهب.

كان يرافقتها رجل ضخيم الجثة.. أخوها على ما يبدو؛ لأن هناك شبهة كبيرة في ملامحهما، لكن لون بشرة الأخ أفتح قليلاً من لون بشرة أخته، كما كان أطول منها قليلاً، إلا أنه أيضاً كان سميناً جداً، وكانت الأخت وهي تتشاجر معه تتأديه أحياناً: تاج الدين وأحياناً تقول له: تاج وأحياناً: تاجو..

كان تاج أو تاج الدين أو تاجوقد استشاط غضباً واحتدم النقاش والشجار بين الأخت وأخيها، بل أدخل أيضاً بينهما مدير البنك في سفستهما ونقاشهما العقيم، وحين تدخل توقف النقاش لحظات، ثم عاد الأخ وأخته مرة ثانية للنقاش وارتفع ضغط كل منهما، وبرزت العروق من تحت جلودهما وظهرت في صوتيهما حشجة تحولت إلى مواء كمواء القطط الجوعى... كان معهما سيدة عجوز تبلغ السبعين أو أكثر نحيفة القوام تبدو داخل ملابسها البيضاء وعباءتها التي لفت بها رأسها ونصف جسمها العلوي تبدو ذابلة ضعيفة..

كانت سيدة هادئة صامئة، في يدها مسبحة وشفاتها تتحركان في حركات منتظمة مع تساقط حبات المسبحة الواحدة تلو الأخرى بين أصابعها.. كانت هذه السيدة هي أم تاج وإقبال بيغم. جلست في صمت شديد على الكرسي تنظر إلى ابنها وابنتها.. وكانا حين يصلان في جدالهما وعراكهما إلى أقصى حد تتدخل، قائلة بصوت خافت:

«يا ابنتي، كل شيء زائل، لماذا تتصرفون هكذا.. كل شيء ملك تاج.. لماذا تتعاركان؟».

«لماذا أترك هذا يا أمي؟ إنني صامت من أجلك فقط!!».

«والإ.. فماذا يمكن أن تفعلي أكثر من هذا..؟ هل الظلم الذي وقع قليل.. لماذا هذا معي؟ المبلغ الذي ظل يوضع في البنك منذ زمان.. أخبرنا يا سعادة المدير، كم وصل الحساب حتى الآن؟».

أخرج جاويد دفتر البنك ووضعه أمامه، ثم قال بصوت عالٍ: «ثلاث مئة وخمسون ألف روبية وخمس وسبعون بيسة».

«لكن ما هو نصيبي منها؟».

«لقد أخبرتك» رد المدير بلهجة كلها نفور «هذا الحساب حساب مشترك بين إقبال بيغم ووالدتك السيدة حسن بيبي».

«اسمع سيادة المدير، هذا ظلم.. هذا امتصاص للدماء.. هذا سطو.. يا إلهي.. هذا ظلم هذا المبلغ كله أرسلته إلى أمي من الخارج، وقامت هي بفتح الحساب المشترك مع إقبال بيغم.. يا سعادة المدير، سوف أرفع قضية.. إقبال بيغم ليست أختي إنها «حرباية» إنها «أم أربعة وأربعين»!!»

سمعت إقبال بيغم كلام تاج الدين، فاصفر وجهها، صار كالكركم، وكادت أن تصرخ:

- «تاج! اخجل.. إنني أتقل على أموالك هذه، ها اليوم جاء صاحب الثروة.. اسأل أمك.. هل هي التي طلبت فتح هذا الحساب المشترك، أم أنا التي طلبت؟ اسأل أمك لا تنظر إلي، وإلا فتحت كل دفاترك وكشفت كل ما خفي».

ورفعت إقبال بيغم صوتها وهي تنطق بالعبارة الأخيرة حتى شدت انتباه جميع العاملين في البنك.

سقط جاويد في دوامة من الارتباك، فهذا أمر يتعلق بسمعة البنك الذي يديره، ماذا درى هؤلاء الناس خارج مكتبه بأن ما يدور من عراك إنما يدور بين أخ وأخته، ربما ظنوا أنه يدور بين أصحاب الحسابات والمدير نفسه... وقال المدير:

«انظري يا أمه، حاولي أن تفهمي، فالأمر واضح.. المبلغ كان يرسله تاج الدين، والحساب مشترك بين إقبال بيغم وبينك، ولهذا فالعلاقة كانت بين البنك وتاج الدين والبنك من ناحية لا يجيز إعطاء أي روية من هذا الحساب.. يا أمه، يمكنك بنفسك حل هذه المشكلة».

«يا أخي، هذا ما أقوله، الأموال أموال، كنت أرسلها إلى أمي، فكيف حشرت الأخت نفسها بيننا وأصبحت شريكة في الحساب، هذا ظلم وإجحاف ولن أسمح بهذا الظلم أبداً» ثم أردف قائلاً:

«يا سعادة المدير، إنك لا تدري.. إن الشركة التي عملت بها في قطر في مد أنابيب البترول تحرق مع الجسم الدم أيضاً، لو خلعت قميصي هذا وأريتك فسوف ترى كم من الجراح والحروق فوق جسدي وعلى ساعدي وفوق ركبتي..» ثم قال وهو ينظر إلى أمه:

«يا أماه، لقد كدت أفقد حياتي مرتين، وأنا أجمع هذه الثروة، لقد وضعت وسط هجير الصحراء» ثم صمت وأخذ نفساً عميقاً وقال مخاطباً المدير:

«يا سعادة المدير، أنا لم أجمع هذا المال من أجل أن يحقق إخوتي وأخواتي أحلامهم في الحياة الرغيدة.. هذه قطرات دم تريد إقبال بيغم أن «تشفطها» في حلقها.. لكني...».

«كفى! أوقف هذه الخطبة.. أنت لست أول أو آخر من اغترب عن بلده، اسمع أنا أحتك الكبرى، من الخير لك أن تفكر أولاً.. لنتحاسب، لقد أعطيتك أربعين ألف رويية حتى تجهز أوراقك للسفر، وأنا متزوجة وعندي أربعة أطفال.. وبقيت في الخارج سبع سنوات، كان طعام الأم، وما إلى ذلك على حسابي، مرضت وأصيبت العام الماضي باليرقان، وأنفقت على علاجها أربعين ألف رويية، شراء الملابس، وخلافه بالإضافة إلى ذلك كل ثلاثة أشهر تقريباً يموت أحد الأقارب، فأذهب مع الوالدة ونؤدي الواجب، وكله على حسابي... لا تخفني هكذا أمام مدير البنك».

«لكن الحساب لا بد أن يتم هنا، حيث وضعت الفلوس».

«يا أماه، لماذا أنت صامته.. لماذا لا تتكلمين؟».

نظرت الأم إلى جاويد مدير البنك نظرات تحمل كل معاني الرجاء والتوسل، ثم راحت تنظر بحسرة ومرارة مرة بعد الأخرى إلى إقبال بيغم وتاج الدين وكانت عدة حبات من سبحتها تتحرك مجتمعة مع بعضها بين أصابعها، حين بدأت تقول:

«أنتم أولادي، كلاكما فلذة كبدي.. ابني وابنتي.. والله فوق.. كسب العمر كله.. ماذا عندي غير هذا؟».

وصمتت فجأة.. وبدأت حبات المسبحة تتساقط بسرعة بين أصابعها، وكان جاويد مدير البنك يريد أن يهرب بجلده، كان يعرف أن الأخ وأخته سوف يستمران في هذا الجدل العقيم، وكان يشعر أيضاً أنه إذا لم يصل إلى البيت لتناول طعام الغداء، فسوف تموت صافيناز من الجوع والعطش، وسوف يضطر إلى إرسال صافيناز إلى بيت أهلها لاسترضائها، فطالما لن تعود إلى طبيعتها، فلن تعود إلى البيت، ولن يستطيع أن يتحمل عذاب هذين اليومين أو الأيام الثلاثة التي تغيب فيها عنه لهذا عرض حلاً لهذا الخلاف كله.

«يا أختاه! يمكن أن تفعلوا هكذا.. أن تغلقوا الحساب، وتسحبوا كل المبلغ وتعطيه للأم.. وتسحب الأم ما لك وتعطي الباقي لتاج الدين، فيقوم تاج الدين بفتح حساب خاص به، فهذا المبلغ كان تاج الدين يرسله من الخارج وحسابه في البنك كله كان عن طريق الحوالات بالعملة الأجنبية، فهو لم يدخل أي مبلغ آخر غير ما أرسل عن طريق تلك الحوالات...».

«صحيح.. بالضبط.. ما قلته صحيح» أخرج تاج الدين علبة السجائر المستوردة مع قداحة مطلية بالذهب وأشعل سيجارته وهو ينظر ناحية أخته.. فسكتت الأخت ربما تحت إلحاح المصلحة..

«هيا يا أماه، أخرجي دفتر الشيكات؛ حتى يمكن أن نسوي حساباتنا».

فأخرجت الأم دفتر الشيكات من حقيبتها الصغيرة، وأعطته إلى إقبال بيغم فوضعت إقبال بيغم على طاولة المدير، وراحت تنظر بكل مرارة إلى الجدران الزجاجية للمكتب وتتفحصها من خارجها وداخلها.. نظرت إقبال بيغم إلى المدير نظرات كلها رعب، ثم ألقت بنظرة كراهية تجاه تاج الدين ووضعت دفتر الشيكات أمام الأم، وقالت:

«خذي أعطي كل ذي حق حقه».

وتقدم تاج الدين وأراد أن يضع القلم في يد أمه، فسقطت المسبحة على الأرض وانفرد عقدها ومال جسد الأم البارد، ثم هوى على الأرض، واسترد الله أمانته التي أودعها عبده.

ثمن الحرية

للأديبة: عقيلة كاظمي

عقيلة كاظمي أديبة معاصرة، لها مكانتها في الأدب الأردني، عرفت بكتاباتهما في فن القصة القصيرة الهادفة، وقصتها «ثمن الحرية» نشرت في أبريل ١٩٩٤م وكانت كشمير قد تعرضت وتعرض لهجمات الهنود الهنادكة المحتلين، وهي حكاية فتاة من كشمير، جلست على شاطئ بحيرة «دل» في وادي كشمير وكتبت رسالة إلى أبيها في بلاد الغربية البعيدة.. ترى ماذا جاء في رسالتها..؟!

ثمن الحرية :

كان الخطاب مفتوحاً أمام «نياز أحمد»، وكانت حروف كلماته قد بدت أمام عينيه وسط الدموع المتساقطة كأنها تسبح وسط ضباب كثيف.. سقطت الدموع على بعض الكلمات فمحتها، وكأن هذه الكلمات قد كتبت بالحبر.. جملة واحدة فقط ظلت تتردد في ذهنه مرة بعد مرة كأنها مطرقة: «استشهد جميع أفراد أسرتنا»..

طأطأ نياز أحمد رأسه.. كم طوى من منازل السفر؟! وإلى أي منها انطلق؟! ما بين مكان سحيق شديد الانحدار وآخر مليء بالأودية

الفسيحة التي تطاول من على البعد أفق السماوات.. كان إذا ما وقف في سفح هذه الأودية تراءى له قصر من السحب بني فوق قمم الجبال.. وكان حين يصل إلى قمة الجبل يطير فجأة قصر السحب إلى أعلى ويصير معلقاً في السماء.. هل كان ذلك سراب في سراب؟ هل كان ذلك خداع في خداع؟..

يذكر حديث الماضي، وكأنه سمعه منذ لحظات قليلة حين كان رضوان أحمد ونياز أحمد يجريان.. يقفزان في أودية «سرينكر».. كان بين الأخوين حب كحب العاشقين، لم يكن أحدهما يتحمل فراق الآخر ولو لحظة واحدة وكان الفرق بينهما في العمر لا يتعدى سنة ونصفاً، ولهذا بدا للناظر أنهما ولدا في يوم واحد..

كانت لهما مكانتهما في الأسرة، بل كان لهما حق النقض داخل الأسرة، وكأنهما دولة عظمى في الأمم المتحدة، فكانت الكلمة التي تصدر عنهما هي الكلمة القاطعة، لا نقاش بعدها.. ولم يصل إلى مكانتهما تلك عبثاً، بل قدما في سبيلها العديد من التضحيات.. وضعاً كفنهما على كتفهما منذ أن كانا في الثالثة عشرة وعاشا حياة كلها رجولة وشهامة..

في منطقة «نوربور» في عموم كشمير آلت حقول الزعفران كلها لأسرتهم، وفي حقول الزعفران تلك كانت حياتهما بكل مسراتها ومباهجها لكن والديهما استطاعا فقط أن يشاهدا بعيونهما فرحة ربيع ثلاث سنوات فقط، ثم راحا يرويان بقطرات دموعهما حقول الزعفران.. وكرّسا حياتهما لتربية ولديهما.. فزواجهما وأقاما حفلاً لعرسهما ظلت الناس في الوادي تذكره مدة طويلة..

كان زواج رضوان أحمد من داخل الأسرة، أما نياز أحمد فقد تزوج من «ريشمان» وذابت صلابة الوالدين، كما يذوب الجليد تحت أشعة الشمس، وذلك من أجل سعادة الابن، فقد كان نياز أحمد معجباً بريشمان.. كان شعر ريشمان الأسود ينساب خلفها، فتبدو كأغصان شجرة السنديان تنساب على عودها.. ووجنتاها كانت تضيء كشعلة من أزهار الجلنار المتوهجة، أما عيناها الواسعتان فكانتا في طرفهما حور.. وفيهما عمق يحوي جميع أسرار الكون.. وهكذا الحسن في كشمير، لكن حسن ريشمان كان شيئاً آخر فاق كل حد.. وهكذا أراد نياز أحمد أن يخفي دائماً ريشمان عن أنظار الدنيا على الدوام، وهذا هو السبب الذي جعله يفرض على جميع أفراد عائلة ريشمان الالتزام بالحجاب الشرعي كاملاً..

بعد أن أكمل رضوان أحمد دراسته وحصل على شهادة الليسانس تولى أمر حقول الزعفران، أما نياز أحمد فقد حصل على شهادة المحاماة.. وولد لرضوان أحمد الذي تزوج من داخل الأسرة ثلاثة أولاد كباراً.. أما نياز أحمد فقد ظل أربع سنوات أو خمس من دون أولاد، مما أثار قلق والديه، وكانت أمه تقول بكلمات خفية:

«لقد نال نياز أحمد جزاء عصيانه».

لكن نياز أحمد كان نفسه سعيداً بحياته مع ريشمان..

في الرابع من أغسطس ١٩٤٧م طلعت شمس الحرية.. وفي اليوم نفسه نزلت رحمة الله على نياز أحمد فرزق بطفلة.. ودخل الأخوان في حملتين متضادتين:

«الحمد لله، والشكر لله، فقد نال المسلمون حريتهم وبهذه المناسبة سوف أسمى ابنتي «آزادي» أي حرية.. قال نياز أحمد هذه العبارة بكل سرور».

«وأخيراً تم التقسيم..» وكان هذا رأي رضوان أحمد.

وصار الأخوان اللذان كان يضرب بجهما المثل فريسة لموقفين متضادين.. كان نياز أحمد يعاند:

- «لنذهب إلى باكستان، ف فيها العافية».

لكن رضوان أحمد كان يقول:

- «سوف نبقى في هذه الأرض، ونعيش على هذا التراب الذي ولدنا فيه».

كان نياز أحمد يدافع عن نظريته بأسلوب المحامين، مستعيناً بالدلائل الدامغة.. إلا أن أي دليل مهما كان لم يستطع أن يزحزح رضوان أحمد عن عناده قيد أنملة..

في تلك الأيام شاهداً معاً حرب سنة ١٩٤٨م إلا أن موقف رضوان أحمد لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، وبقلب حزين ترك نياز أحمد نصيبه من حقل الزعفران لأخيه، وهاجر إلى باكستان.. كان فراق الأخوين صعباً على قلب كل منهما، ومع هذا ودع كل منهما أخاه وهو بيتسم..

قدم نياز أحمد إلى باكستان وعمل بالمحاماة وذاع صيته وصار عضواً في «البرلمان» ووصل إلى منصب وزاري.. ووهبه الله بعد ابنته

«حرية» خمس بنات.. وكان راضياً بما قسمه الله له، بينما كانت ريشمان تشعر أحياناً بالندم إلا أن نياز أحمد كان يقول لها دائماً:

- «هذا رزق من عند الله.. هذه رحمة الله، ويجب ألا نكفر بنعمته.. هؤلاء البنات بالنسبة لي أعظم من أي ولد».

وقد كافأ رب العزة نياز أحمد على صبره وشكره، فصارت بناته شموساً وأقماراً: ثلاث منهن صرن طبيبات مشهورات، واثنان الآن من أساتذة الجامعة والخامسة صارت مهندسة ووهبن الله في الختام أخواً.. سبحان الله!

وهناك.. ولد لرضوان أحمد خمسة أولاد وراح يدعو الله أن يرزقه بنت.. إلا أنها مشيئة الله.. استمرت المراسلات بين الأخوين.. وحين كانت الظروف تتحسن بين البلدين كانا يلتقيان، وإذا ما اضطربت الأحوال كانا يقومان بالمراسلة عن طريق لندن وأمريكا.

وبناء على رغبة الأخ رضوان أحمد زوّج نياز أحمد بناته الثلاث لأولاد أخيه.. مع أن أولاد رضوان أحمد لم ينالوا تعليماً عالياً، لكن كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لاستمرار المحبة وعلاقة القربى بين الأخوين.. لم تكن هناك قلة في المال أو الثروة.. وتزوجت أرم وكنول ونيلم.. وذهبن ليعشن هناك في كشمير جنة الله على أرضه.

كان نياز أحمد إذا حدث والتقى بأخيه يحاول جاهداً، وفي كل مناسبة أن يقنعه بوجهة نظره:

- «الهنادكة لا يمكنهم التخلص مما في عقولهم من تعصب.. وربما يحملونك ذات يوم على الندم والحسرة.. يا أخي، الحمد لله على أنه لم يصيبك أذى حتى اليوم.. تعال إلى باكستان..».

فيجيب رضوان من فوره:

- «إيه يا أخي! ما هذا المزاح؟ نحن في كشمير ثمانون بالمئة من السكان، والهنادكة يمثلون أقلية في كشمير، وهؤلاء المساكين يخشوننا دائماً.. انظر السكر غير متوافر في جميع أنحاء الهند، لكنه موجود بوفرة في كشمير، فالحكومة دائماً تهتم كثيراً بالكشميريين».

ويستخدم نياز أحمد طريقته في المحاماة:

«يا أخي، إن ربيع الوطن الحر شيء آخر، إنك مرفه الحال هناك بلا شك، لكنك تحت سيطرة الآخرين».

وينتبه رضوان أحمد، بل يفزع ويقول منفعلًا:

«اسمع يا أخي، لا تجعلني أطلق لساني بالكلام.. ماذا فعلت لكم الحرية أو ماذا فعلتم أنتم للحفاظ على الحرية؟! لقد انشطر البلد إلى شطرين.. ثم ماذا عن المعارك الدائرة بين حكامكم وزعمائكم.. لماذا لم تنته بعد هذه المعارك؟! هل تذكر الجملة التاريخية التي قالها الكاهن الهندوكي: لن أغير ملابس الكهانة تلك، حتى تتغير الوزارات في باكستان.. يا أخي، أمركم عجيب وعلى قول المثل: «يقرش قوالب السكر ويخاف أكل الكعك» فمن ناحية كراهية للهند، ومن ناحية أخرى

شرائط الأفلام الهندية تملأ كل باكستان وأصوات الأغاني الهندية يرن صداها في كل مكان.. بالأمس، وفجأة ذهبت إلى أحد محلات «الفيديو» وسألت بكل شوق عن فيلم باكستاني فراح صاحب المحل يحدق في من رأسي إلى أخصص قدمي، ثم هز كتفيه بطريقة كلها احتقار قائلاً: «لا.. لا.. نحن لا نضع هنا أفلاماً باكستانية.. وخرجت في حيرة من محل الفيديو.. ما هذه السياسة المتضاربة يا أخي، سياسة بوجهين أليس كذلك؟».

وبعد أن سمع نياز أحمد خطبة أخيه تصبب عرقاً.. ربما كان عرق الندم، لكنه ظل يتغنى بوطنه الحالي.. باكستان..

كان آخر لقاء بينهما منذ سنتين.. ذهب رضوان إلى لندن لبعض الأعمال، بينما ذهب نياز لزيارة ابنته.. وبعدها لم يلتقيا.. بدأت أخبار الثورة تتوالى من كشمير، وتوالت أيضاً أخبار استشهاد الفدائيين.. وفي أثناء ذلك وصلت رسالة «نيلم» إلى أبيها...

والدي، يا أعز من روحي...

هذا آخر خطاب سيصلك مني، لكنني قبل أن أتناول كأس الشهادة أود أن أخبرك بالتفصيل عن بلوغي هذه المرحلة.. مرحلة الشهادة، حتى يمكن للأجيال القادمة أن تقدر قيمة الحرية... فكشمير اليوم تحترق.. من حولنا عمارات تحترق، وأنابيب المياه تنفجر، وأعمدة الإنارة تتساقط في الشوارع، وأكوام من جثث المسلمين.. ورائحة الغازات السامة التي لا يمكن أن تحتمل مع دخان الغازات المسيلة

للدموع التي تكوي الجفون، انتشرت في الجو... واحترقت حقول الزعفران، وسممت مياه الآبار والجداول والبحيرات الجميلة وأشعلت النار في أزهار الجلنار، أما ثمار التفاح والكمثرى التي لم تنضج بعد فقد ذبلت، وكأنها رؤوس انحنت من الغم والههم داخل مآتم حزين...

والدي العزيز..

يداى ترعشان، كلماتي وعباراتي غير مترابطة، لكني لا بد أن أسمعك الحكاية..

جانرا «لاله شنكر ديال» الذي كنا نناديه دائماً بالعم، وكان حتى آخر لحظة يهدئ من روع عمنا رضوان، بل كان بنفسه يصب اللعنة على حكومته ويروح يلقي الخطب ضد ظلم الحكومة... إذا به ذات ليلة يقوم بإرشاد العساكر الهنادكة إلى مواقعنا وملاجئنا.. والعم رضوان الذي كان دائماً يتغنى بمحاسن الحكومة الهندية، وكان من أهم المجاهدين في حرب التحرير.. كان يمد المجاهدين بالأسلحة وكان يقدم لهم الملاذ أحياناً وهكذا كان في «بدروم» البيت أسفل الطابق الأول قاعدة للفتائين..

كان «لاله شنكر ديال» يشعر بهذا الأمر وذات يوم كان أحد الأطفال الصغار يلعب، فاقترب من بيته فراح يستدرج الطفل ويسأله ويستفسر منه.. وفي الليل بدأ مهد حريتنا يهتز على وقع أحذية العسكر الهنادكة.. قبضوا على العم رضوان وقاموا بقتله أمام أعيننا.. وانطلق المجاهدون المختبئون، فهجموا على جنود الكفر، وتمكنوا منهم جميعاً.. إلا أن

الظلمة تمكنوا من معرفة بيوت المجاهدين كلهم وأخذونا نحن الأخوات الثلاث إلى حيث كنا قضينا شهر العسل بعد الزواج.. ماذا أخبرك يا أبي، عما ارتكبه معنا.. أخذونا على حجرة مثل الصالة الكبيرة.. وظل رجل مثل أولئك الذين يعملون في مزادات الأسواق، ظهر على ما يشبه خشبة مسرح وراح يدق جرسًا، ويقول:

«يا أبناء القنبلة الذرية! اليوم هزمنا سرينكر.. اليوم فتحنا سرينكر.. واليوم أيضاً هزمنا كشمير كلها.. وبهذه المناسبة السعيدة يعقد هذا المزاد.. مزاد ربما لم تروا مثله في حياتكم.. انظروا الآن وأفرغوا كل ما في جيوبكم...».

قال هذا وراح يدق الجرس بشدة، ويشير إلى الناحية الغربية من خشبة المسرح وبناء على إشارته انفتح الباب الغربي وأحضروا طابوراً من الفتيات الكشميريات المسلمات.. ثم بدأ النداء:

البنيت بعشرة روبيات.. البنيت بساعة يد.. البنيت بعلبة سجائر فضية.. وفجأة خرج جندي ينتمي إلى طائفة السيخ من وسط الزحام، وصاح قائلاً:

- «يا أصدقاء! لا تعيدوا الآن هذه المسرحية الخطيرة مرة ثانية، أتوسل إليكم باسم الإنسانية، باسم التاريخ.. إن هذا المزاد لا يمكن أن يقام، مزاد كشمير هذا لا بد أن ينتهي الآن كما انتهى مزاد جنكيز خان في السابق، ومثلما انتهى أيضاً هولوكو، ومثلما انتهى الروم واليونان ومثلما انتهى مزاد ١٩٤٧م، سوف تعيش بنات كشمير.. وينتهي هذا المزاد».

وجه الجنود الهنادكة أفواه بندقياتهم ناحيته، لكن الجندي السيخي استمر في الحديث:

- «لقد قرأت تعاليم «كرنته» فهو يقول: الإنسان الطيب لا بد أن يحفظ للمرأة عزتها؛ لأن المرأة أم وأخت وابنة.. المرأة هي عزة حضارتنا وثقافتنا، وقد قال هذا أيضاً معلمنا كرونانك...».

وبينما استمر الجندي السيخي في كلامه انضم إليه بعض الناس، إلا أن «جنرالاً» أصلع الرأس خلع غطاء رأسه، وأصدر حكمه ضد الجندي السيخي قائلاً:

- «أحرقوه.. ألقوا به في الخارج...».

لكن الشهامة كانت قد أخذت من الجندي السيخي مأخذاً فلم يتراجع عن موقفه، وقال بلهجة كلها ثقة:

- «لن أتزح من هنا؛ حتى توقفوا هذا المزاد.. إنني أتذكر تاريخي جيداً.. لم يمضِ خمسون عاماً حتى غرر بنا وخدعنا، فأظهرنا شجاعة زائفة سنة ١٩٤٧م، فحطمنا بوحشية أزهار الزعفران.. لكن الخالق عاقبنا، فنحن اليوم نخوض أيضاً حرب حريتنا مثل الكشميريين، لكننا لم ننجح للأسف...».

وفجأة سمعت طلقات عيارات نارية في الصالة، وبدأ جسد الجندي السيخي العريض الطويل يرتعش وقيدٌ بالحبال، وشدوا رقبته إلى ناحية، وراحوا يلفون حول جسده الحبال وهو يتلوى، بينما ارتفعت

أصوات قهقهات وحشية في الصالة، وبدأت بقع الدم تتساقط فوق خشبة المسرح إلى أن وصلت إلى بساط الصالة، فصار بلون الدم.. بينما راحوا يعدون الفتيات اللاتي ربطن بالحبال كحبات مسبحة..

أبي..

ظهرت على شفتي ابتسامة كبرياء.. قلت في نفسي: أنحن حيوانات أم نحن أوراق «كوتشينة»؟... نحن عرض كشمير وعزتها.. نحن شرف كشمير ونخوتها.. يمكن للعدو أن يستولي على كل ركن من أركان كشمير، لكنه لا يمكن أن يستولي على قلوبنا.. وطالما قلوبنا حرة ستظل كشمير حرة.. لا شك أن النهار الآن ظلمة حالكة، لكن فيه نجوم منتشرة هنا وهناك.. ولن يتمكن الهنادكة أبداً من الفوز بكشمير.. فكشمير اليوم نائرة..

أبي..

كان ثمن حرיתי مئة روبية فقط.. وأنا الآن أجلس على لوح خشبي في البيت المحترق، أكتب إليك بقلم حبر سقط من جيب جندي هندوكي منحوس.. أكتب إليك هذا الفصل من فصول الحرية، وسأحاول بطريقة ما إيصاله إليك.. أدعو الله أن يوفقني في محاولتي هذه.. آه لقد تذكرت، سوف أرسل أختي الكبرى نسيمة إلى لندن؛ لعلها تصل إليك وبعدها سأسلم نفسي إلى بحيرة «دل» حيث كنا نتفصح فوق رمال شطآنها الحمراء.. وحيث كنا نشعر بالقمر، وهو يبيع يتأرجح فوق سطح البحيرة.. حيث ظلال أزهار الجلنار.. حيث كانت حقول الزعفران..

أبي الحبيب..

لن يكون لي قبر، لكن روحي ستظل حية في كشمير مع أن أحداً من
أفراد عائلتي لم يبقَ على قيد الحياة، لكن ندعو الله أن تبقى كشمير
حية خالدة.

توقيع

ابنتك الشريفة الطاهرة

كان نياز أحمد قد جلس وطأطأ رأسه.. وكانت عيناه مغرورتين
بالدموع، ولكن ظهرت على وجهه ابتسامة..

س

تفاهم

للأديب: محمد سعيد شيخ

محمد سعيد شيخ من الأدباء الذين يعالجون في قصصهم القضايا الاجتماعية من زوايا مختلفة، وهدفه في قصصه أن يعبر بصدق عن الحقائق الاجتماعية، وهو يحاول إبراز الجوانب الإيجابية في المجتمع من خلال التركيز على القيم الصحيحة مما جعل لقصصه مكانة بارزة في الأدب الأردني، وقصة «تفاهم» صورة معكوسة على مرآة محدبة لما قد يظهر في المجتمع من انحرافات، والكاتب يمسك بأسباب القلق داخل المجتمع ويحوّله إلى صورة إيجابية، فالحقائق الاجتماعية والمد والجزر في الفكر الإنساني من ميزات هذه القصة إن لم تكن شاهداً على براعة أديبنا المعاصر محمد سعيد شيخ من مدينة لاهور بباكستان.

تفاهم:

بدأت المسيرة.. وضمت في معظمها أولئك الناس الذين شاهدوا الواقعة، مرت في الحواري والأسواق ووصلت إلى الشارع الرئيس، فضمت إليها كثيراً من الناس، بالإضافة إلى من رأى الواقعة ومن سمع عنها، وصارت هذه المسيرة أكبر مسيرة في تاريخ هذه القرية.. كان هذا في

الأصل احتجاجاً على واقعة حدثت في الصباح إلا أن الاحتجاج ضمّ بين طياته أناساً من كل الأنواع، أناساً لا علم لهم أصلاً بالواقعة، ولكنهم يحملون بداخلهم مشاعر الاحتجاج.. فانضموا إلى المحتجين وتظاهروا معهم.

في هذه البلدة خرجت قبل مسيرات في مناسبات دينية أو احتفالات قومية إلا أن هذه أول مسيرة من نوعها يخرج فيها الناس احتجاجاً على الظلم والإجحاف، كان هذا هو الاحتجاج الأول من نوعه، ولم يكن هو أول ظلم أو أول إجحاف وقع بحق الناس.. فكم من ظلم.. وكم من إجحاف تعرضت له البلدة: «نوران» اختطف من السوق في «عز النهار»، اختطفها بعض المثلثين، ولا يزال أبوها يدور في الحواري والشوارع يقول: إنها موجودة في «دوار العمدة» الكبير في القرية المجاورة، ومع هذا لم يعثر لها على أي أثر يذكر.. ولا يزال صوت أبيها ييح من النداء على ابنته (انضم والد نوران إلى المسيرة وكان أول من ألقى بالحجارة على مدخل السكة الحديد).

ولا تزال أرملة «غلام رسول» الشابة على قيد الحياة أيضاً، وكانت ضمن المسيرة، وراحت تنظر إلى ذلك المستشفى الذي توفي فيه زوجها - أبو أولادها - نظرات كلها غضب وثورة، فلم يجد الزوج المرحوم العلاج ولا الدواء في الوقت المناسب، فظل يعاني ويقاسي حتى توفي.

وفي الميدان الذي وقف فيه الناس يصيحون ويهتفون بكل عزم، وقبل أيام لقي الفتى الناضر ابن فاطمة تشبوري حتفه تحت عجلات عربية النقل الضخمة التي سحقته عظامه، وقام والد السائق، فجعلها توقع على أوراق تنازلها عن القضية في مخفر الشرطة مقابل ورقة

مالية فئة المئة روبية.. وفي هذه المسيرة أيضاً اشترك جمال دين وهو فلاح سلبه أحد الإقطاعيين أرضه وأكثر من هذا رفع قضية ضد أولاده الثلاثة، واشترك أيضاً في المظاهرة «داتانائي» الذي قام جاره بتهريب زوجته ولم يتمكن «داتانائي» من إقامة دعوى ضده حتى الآن.

مثل هذه الوقائع وغيرها حدثت من قبل إلا أن المسيرة خرجت لأول مرة، ولأول مرة يبدر من الناس رد فعل جماعي.

ربما كان سبب هذه اليقظة التي ظهرت في البلدة قرب انعقاد الانتخابات التي ستعقد لأول مرة منذ مدة طويلة، فتذكر الناس الأمهم ومآسيهم التي تناسوها قبل، إذ فهم أهل القرية من أول يوم وقيل أن يكتب تاريخ بلدتهم أن الظلم - الذي تعرضوا ويتعرضون وسيتعرضون له - قدر من الله، وأنه مشيئة الله، فرضوا به، وكانت خطبة مولوي عبد القدوس خطيب المسجد الجامع مؤثرة تماماً، وكان صوته لحناً داودياً بينما ينشدهم دائماً أشعار العلامة محمد إقبال، كم من مرة راح يقول لأهل القرية:

«المصيبة والبلاء امتحان للعبد من ربه، ومن يتحمل هذا الاختيار هو في الأصل المسلم، وهو الرجل المؤمن الذي وصفه العلامة إقبال في شعره.. وإن الله مع الصابرين».

ثم يقول:

«لا يمكننا أن نحارب المقدر أو نتصارع مع ما كتب علينا، والتسليم بمشيئة الله يرقق من طبع الإنسان، ومرة بعد مرة وبالتدريج يصبح

البلاء سهلاً محتملاً والتاريخ يخبرنا بذلك وحكيم الأمة العلامة إقبال يقول: ... «ثم ينشد مولوي عبد القدوس أشعار إقبال برقة شديدة..».

إلا أن مسيرة اليوم تبدو، وكأن الناس يريدون أن يصدروا حكمهم بأنفسهم أو يقرروا مصيرهم بأنفسهم... لم يكن للمسيرة زعيم أو قائد كما راح كل إنسان يهتف بما يشاء وكما يشاء، وحين وصلت المسيرة إلى الشارع الرئيس بدأ الناس يهتفون: أوقفوا «البلطجة».. أوقفوا الشغب والفوضى.. أوقفوا الظلم.. وتوقفت حركة المرور من جهتي الطريق... اشنقوا «شيدا» اعدموا «شيدا»..

وخرج خلق كثير من الحافلات والسيارات الخاصة، وسيارات النقل الصغيرة التي توقفت على جانبي الطريق، وراحوا يشاهدون ما يجري أمامهم.. بدأ المشاركون في المسيرة يحطمون إشارات المرور، بينما قام آخرون بوضع الإطارات في الشارع وإشعال النار فيها، وبدأت أعمدة الدخان ترتفع وتظهر من بعيد، ثم جاءت الشرطة وبدأت تحاول تفريق الناس بضرهم بالعصي والهرات.. فتفرق الناس وعاد المرور في الشارع، كما كان عليه من قبل..

في هذه المسيرة اشترك والد زينب أيضاً، زينب التي حدثت واقعتها صباحاً.. تفرق الناس وانتهت المسيرة، ووجد أبوها نفسه وحيداً واقفاً على «كومة» من القاذورات على جانب قناة مائية صغيرة تتساب على طول الشارع. وراح يشاهد بتعجب وذهول منظر الناس، وهم يتفرقون والدخان يتصاعد أعمدة في السماء.. وكذلك منظر فوضى المرور وربكته الشديدة..

راح «بركة» يفكر، وهو يقف بين كومة القاذورات متى بدأ يحلم بتعليم ابنته زينب؟ كان يملك عدة قراريط من الأرض... لا يدري متى ومن أين جاءت إلى ذهنه فكرة أن التعليم يميز بين الإنسان والحيوان، فكلاب السادة في قريته وما حولها تعيش حياة أفضل من حياته، ولهذا فكر أن يرفع من شأن ابنته الوحيدة زينب، ففتح لها فرصة التعليم.. وعارضته أم زينب، وقالت:

«يا هوه.. يا هوه! عشنا وشفنا البنات يتعلمن.. صديقات زينب في استعداد الآن للزواج وأنت يا بركة، ترسلها إلى المدرسة.. أظنك تعمل منها معلمة؟!».

وكان بركة يبتسم لحديثها، ويقول:

«يا جاهلة.. امرأة والأدهى والأمرّ جاهلة.. ماذا أدراك بأن العلم قد ارتقى وتطور..؟!».

كان بركة قد سمع حديث الأستاذ محمد دين عن رقي العلوم وتطورها، وسمعه أيضاً يقول: إن المرأة الآن وصلت حتى إلى القمر.. ونساؤنا تراهن كالخارجات من القبور..! والأمة التي تكون نساؤها جاهلات لا يمكن أن ترقى وتتطور..

هكذا قرار الأستاذ محمد دين وكلام الأستاذ محمد دين بالنسبة لبركة كلام مصدق «لا يخرّ منه الماء» وكان بركة الذي نال كل معارفه وتعليمه دون مدرسة يرجع فضل ذلك لأقوال الأستاذ محمد دين وأحاديثه، فماذا يمكن أن تفهم زوجته الجاهلة هذه ما يقوله الأستاذ

محمد دين؟! ولهذا قام بركة بالاهتمام بتعليم ابنته، حتى حصلت على شهادة الثانوية وبعدها ألحقها بالمعهد - في البلدة الكبيرة المجاورة لبلدتهم - الذي يعدها للتخرج للعمل مدرسة.. ومرة أخرى تصيح أم زينب نادبة حظها:

«لقد صارت البنت شابة يا بركة! زوّجها.. هذا هو أطيب عمل.. زميلاتنا الآن في أحضانهن ثلاثة أو أربعة أطفال.. ماذا يفيدنا العمل مدرسة؟!».

بين كومة القاذورات راحت كلمات الزوجة تتردد في أذنه، فانتبه فزعاً.. بينما كانت المسيرة قد تفرقت وعاد المرور إلى ما كان عليه كأن أحداً لم يهتم بما دار حوله منذ قليل.. كانت الإطارات لا تزال تحترق في الشارع، وراح بركة يجر أقدامه، وكأنه يعد خطاه متجهاً ناحية البيت.. فهو يعلم أنه سيجد في البيت زوجته تلطم وجهها وتندب حظها، فقد كانت تعدّه المسؤول عما حدث لزينب؛ لأنه هو الذي أرسلها للتعليم..

دخل البيت، فوجد الصمت يخيم عليه، كان (كالمقبرة) التي دفن فيها أحد الموتى منذ لحظات.. كانت زينب ترقد في الحجرة الخلفية وأنفاسها تخرج منها بصوت مسموع يعلو، وينخفض، بينما رقدت أمها بطريقة معكوسة على السرير الخشبي القابع في صحن البيت وكانت قد أوصدت مزلاج الباب من الداخل؛ حتى لا تسمح للمتعاطفين معها القادمين للاستفسار عن حالها بالمزيد من إقلاقها ومضايقتها.. أما زينب التي كانت حتى هذا الصباح تعد نفسها ملكة جميع الكائنات، فقد

راحت تتحرك هنا وهناك، وهي تخفي وجهها، كانت تظن أن مباحج الحياة تخرج من أنفاسها وأن الهواء لا يمس إلا جسمها، وأنه يلاطف فقط شعرها ويهفّ ملابسها، وأن جميع ألوان الورود ظهرت لها وأن السحاب يمضي ويمطر من أجلها والطيور تغرد والعصافير تشقشق لها والسماء واسعة زرقاء فقط؛ حتى تراها هي دون سواها.. كانت تقف في بيتها الطيني مساء أيام الصيف تتطلع إلى البيوت البعيدة وتتنظر إلى خضرة الحقول وتتطلع إلى السماء، وإلى الجبال العالية ثم تنشر ذراعها ويتمنى قلبها أن تحتوي جميع الكائنات بين أحضانها، وحين تنام مع أمها في الليل تروح تضم أمها أحياناً بشدة، فتصيح الأم وتصرخ:

«ما لك يا بنت..! لماذا تطبقين علي هكذا؟ آه عظامي لم تعد بهذه

القوة التي تتحملك».

ثم تقول لبركة في اليوم المقبل:

«عليك أن تزوج زينب بسرعة.. البنات لا يمكن أن تسيطر على

شبابها»..

فيضحك أبوها..

«لم يحن الوقت بعد.. لقد أصبحت الآن مدرسة.. اتركها تعلم

الأولاد، يقول الأستاذ محمد دين: إن التدريس أعظم عبادة».

كانت زينب حين تمشي ذاهبة إلى المدرسة تحرك أقدامها، وكأنها

تمشي فوق النجوم، ألبسها والدها العباءة والبرقع، إذ كان عليها أن

تخترق السوق في ذهابها وإيابها... كان بيت «شيدا» يقع في طريق زينب، فكان يستعد وقت ذهابها إلى المدرسة، فيقف على باب بيته، ويحاول أن يلفت نظر زينب إليه بشتى الطرق، ووصلت محاولاته أحياناً إلى حد اعتراض طريقها أو الدندنة وإصدار صفير خافت.. كانت زينب لا تغير أحداً أي اهتمام، فهي ترى أنه لا وجود في الدنيا لأحد سواها وشيدا بالنسبة لها لا وجود له، فكيف تغيره اهتمامها.. هذا بينما أصدقاؤه يسخرون منه ويهزؤون:

«يا صاحبي.. هذه الفتاة لا تلتفت إليك، ولا تقدرك حتى قدر قشة..
يا صاحبي، إنها لا تهتم حتى بوجودك.. ما فائدة تجولك هنا وهناك؟
ما فائدة ملابسك المكوية وهذا العطر الفواح..!»

وكان شيدا المسكين يسمع ما يقال، وما يصدر من أصحابه، ويرى سخرية رفاقه فيصيبه الخجل، ومرة قال له أحدهم:

«انظر يا صاحبي.. أه لو استطعت أن تنزع عنها البرقع، فتكشف وجهها لكل من في السوق...».

وأخذته النخوة والرجولة، وأخذته العزة بالإثم، وفي وسط النهار سار بجوار زينب ثم تقدمها... وفي اليوم المقبل تجراً، فقال لها بصوت منخفض:

«إذا لم تنزعني عنك نقابك فسوف نرى...».

لكن زينب لا ترى أحداً ولا تهتم على الإطلاق بشيدا، وهي تحتاط

منه كما تحتاط حين تشاهد بعض المياه الوسخة لمقاة في الطريق،
فهي تتذكر دائماً كلمات أبيها التي يسمعا من الأستاذ محمد دين:

«حين يكون الإنسان متعلماً مثقفاً لا يمكن أن يناله أي عيب».

وكان يوم الواقعة.. مضى شيداً يمشي بجوارها وخاطبها، قائلاً:

«أقول لك: أرني وجهك.. لقد تراهننت مع أصدقائي».

وزينب لا تهتم بما يقول، كأنها تسمع شحاذاً يتابعها يطلب منها
صدقة.. ثم تقدم شيدا إلى الأمام وفي وسط ميدان السوق قبض على
ذراع زينب، وأوقفها:

«ألا تستطيعين أن تريني وجهك؟! ماذا تظنين نفسك؟ انظري..

انظري...».

وسحب شيدا النقاب من فوق رأسها، فانكشف وجه زينب، وانحل
عقد شعرها، فانساب على كتفيها وغطى ظهرها.. وراح شيدا يحدق
في وجهها، ثم ألقى بالنقاب في غضب على الأرض، وصفعها على
وجهها بشدة، وانطلق دون أن يقول كلمة...

حاول كل من شاهد هذه الواقعة فهم ما حدث.. لكن دون جدوى
حتى زينب نفسها لم تدرك كيف حدث ما حدث، وشعرت بالخدر على
وجنتيها، وعلى لسانها أحست بطعم الدم، وتقدم أحدهم، فوضع
النقاب على رأسها ولم تتذكر بعد ذلك شيئاً.. من أخذها إلى البيت؟..
ومن هذا الميدان.. ميدان السوق بدأت مسيرة الاحتجاج...

أثرت مسيرة الاحتجاج عن إدراج قضية احتجاج ضد شيذا وتم اعتقاله، وعرضه على المحكمة المحلية ورفض الإفراج عنه بكفالة وشاع خبر القضية بكل تفاصيلها في أنحاء البلدة وشاعت حكايتها على كل لسان، وكان ذكرها خارج بيتها بالقدر نفسه الذي ذكرت به داخل بيتها، وهكذا وضعت زينب نفسها في سجن اختياري داخل البيت، وامتنع لونها وغطتها سحب الحزن القاتمة وعمت الظلمة، وراحت تخشى الخروج من عتبة دارها.

حين رفضت المحكمة العليا أيضاً الإفراج عن شيذا بكفالة ساور القلق والديه، وأصدقاؤه بدؤوا يشاهدون شيذا بين قضبان السجن مقيد اليدين.. وذات ليلة قام والده ووالدته وأصدقاؤهم بتشكيل وفد اتجه إلى بيت بركة والد زينب.

أجلسهم بركة في صحن الدار، كان من بينهم بالإضافة إلى والد شيذا ووالدته بعض معارف بركة منهم مولوي عبد القدوس والأستاذ محمد دين أيضاً.. بدا هبة الله - والد شيذا - الحديث، فقال:

«أخي بركة.. نحن في منتهى الخجل والإحراج مما ارتكبه ابننا شيذا في حق ابنتكم زينب، وعلى كل حال فهو ليس بالولد السيئ، لكنه متهور قليلاً، لقد جئنا نطلب منك العفو، والصفح عما بدر منه.. لقد كان السبب الأصلي في هذه الشقاوة أصدقاؤه.. لقد خدعوه وعلى كل حال فنحن آسفون، وزينب كما هي ابنتك ابنتنا أيضاً.»

ظل بركة وزوجته صامتين لم يدر أحدهما ماذا يقول وهنا راحت أم شيذا تربت على ظهر أم زينب، قائلة:

«وأنت يا أختاه.. اعفي واصفحي عن ابني، فالمسكين قابع في السجن منذ شهر بأكمله..».

واغرورقت عينا أم زينب بالدموع:

«انظري إلى حال ابنتنا أيضاً.. لقد بدأت تخاف حتى من النور.. لم تعد لها همة على الخروج من البيت.. لقد تحطم مستقبلها تماماً».

«نحن نقدر مدى حزنك يا أختاه! فتحن أيضاً أصحاب بنات، ولهذا فإن كنا جئنا نطلب منكم العفو، والصفح فإننا نطلب منك أن تجعلي من زينب ابنة لنا بحق وحقيقة..».

ووضع هذا الاقتراح الذي قدمه والد شيدا بركة وزوجته في حيرة بدت على وجهيهما، وهما يستمعان إليه، وبينما هما على هذه الحالة تقدم أحد أصدقاء بركة ويدعى فقير محمد صاحب محل لبيع الحليب فقال:

«أخي بركة، إذا كان النصيب قد كتب اسم زينب وشيدا معاً، فلنا أن نعد هذا من عند الله ونقبل به وفي هذا عزة لنا.. أليس كذلك يا شيخ؟!».

«بلى، صحيح، فقير محمد، صحيح! الله في كل أمر حكمة، ونحن لا يمكن أن نعارض التقدير الإلهي، ثم إن العفو من أطيب الأمور، والله يحب العافين كما أن العلامة إقبال أيضاً قال: ...

لكن بركة لم يصبر حتى يكمل المولوي حديثه، فقاطعه:

«لكن يا فضيلة الشيخ، نحن لا يمكن أن نري وجهنا لأحد الآن...».

«ولهذا، فقد أصبح هذا الأمر ضرورياً يا أخي بركة، إن ما يحدث في هذه القضية من مرافعات وغير ذلك من أمور مخجلة يصيب أهل الفتاة أكثر، وإذا ما وقع عقاب على شيئا وصدر حكم ضده، فهل يرجع لك هذا عزتك؟ ثم ذهاب زينب إلى المحكمة ودفاع المحامين والمرافعات وما إلى ذلك... ماذا يفيدك كل هذا؟ فالولد ولد ماذا تفرق معه؟ فقط اسم ابنتك ستلوكه الألسنة»، جاء كلام عمدة البلدة دليلاً على صحة الرأي السابق وكان له وزنه في الجلسة، فراح بركة يبحث عن رد وراح مع زوجه في تفكير عميق، بينما عادت أم شيئا مرة أخرى تستعطف أم زينب:

«فكري يا أختاه.. شيئا ليس بالولد السيئ، ما شاء الله شاب كسيب... له نصيب من أرض والده ثم هو معجب بزينب أيضاً؛ لهذا دفعته عاطفته القوية لارتكاب تلك الحماقة، ثم البنات هذه الأيام لا يجدن من يتزوجهن، وزينب بالنسبة لكم ستكون مشكلة كبيرة».

كانت زينب تجلس في غرفة أحكم إغلاقها بجوار صحن البيت الذي يشهد تبادل الحديث عن موضوعها، وكاد رأسها ينفجر وهي تحاول فهم مقصد كل هذه الأحاديث التي تدور في الخارج.. كل ما فهمته على أكثر تقدير أن ما يدور من حديث يتعلق بها سواء كان الحديث عن السماء أو عن الأرض، فهي لا تدري شيئاً..

«لكن ماذا سيقول الناس؟» خرج هذا السؤال من فم بركة كأنه الصراخ؛ ليعبر عما بداخله من ألم متمكن.

«ما لك والناس يا بركة، اترك الناس فهم الآن أيضاً يثرثرون!.. ألم تسمع؟! وإذا لم تسمع فهذا أطيب!».

«هل يمكن لأحد أن يغلق أفواه الناس أو يسكت ألسنتهم؟!، ثم إن هذه الواقعة حديثة والناس هنا سوف ينسون كل شيء...».

توقف عقل بركة عن العمل، كان يريد أن يفكر ويزن الأمور، كان يريد أن يميز ويعرف ما هو الأطيب.. إلا أن جميع ما سمعه من كلام راح يتراءى له أمام ناظريه لا يترك له مجالاً للتفكير.

كان الرجل وزوجته قبل ذلك في اضطراب وقلق، وحرماً على نفسيهما الطعام والشراب، فكل يوم كلام جديد وحديث جديد وامرأة تحكي حكاية وأخرى تروي رواية، بينما زينب كانت تجلس وحيدة مضطربة قلقة.. وحيكت آلاف القصص والحكايات والقضية كانت على وشك أن ينظر فيها.. واسم زينب وشيدا لم يكن في أوراق المحكمة فقط، بل كان أيضاً على ألسنة الناس فقد انعقدت بينهما علاقة لو حاولا بأنفسهما فسخها لما سمح لهما الناس، بذلك، فألسنة الناس حضرت على يدي زينب اسم شيدا بينما قيد شيدا زينب بقيد في هذه الدنيا، فهي لا يمكنها أن تهرب من شيدا إلى أي مكان، ولو حاولت الهروب فسوف يبحث عنها الناس ويسلمونها له.

سمع بركة كل هذا وظل ساكناً، وسكت الأستاذ محمد دين، وصمت مولوي عبد القدوس.. ورئيس الشرطة أيضاً... جاء مع كل هؤلاء، فقال موجهاً كلامه إلى الأستاذ محمد دين:

«أنت لم تتطرق حتى الآن برأيك.. ماذا يرضيك؟».

ورفع الأستاذ عينين مليئتين بالرجاء ونظر إلى بركة:

«أخي بركة.. ما جرى هنا كله.. هل جرى برضائك ورضائي.. ونحن نتحدث أيضاً برضائنا دون ضغط من أحد.. فقط هز رأسك، فهذا هو أهم شيء».

وسواء عرف الناس ما يقصد أو لم يعرفوا فهم بركة كلام الأستاذ
ورد:

«أفهم أفهم يا أستاذ، لقد تحدثتم بكلام مختلف، لكنك أيضاً أستاذ و «طلعت» إنساناً كعامة الناس» قال بركة هذا بصوت كله يأس.
«نعم، أنا كعامة الناس.. إنسان عادي.. لا يمكن أن أكون مختلفاً.. من منا يصعد إلى المشنقة؟! من منا على استعداد لأن يظل مطلوباً طول الوقت؟!».

وسلم بركة بهذا الكلام..

ومثلما وضع «بصمة» إصبعه على الأوراق الخاصة بسحب القضية وضع «بصمة» إصبعه على عقد زواج شيدا وزينب، ففي كلتا الحالتين تظل «بصمة» الإصبع أكثر اعتباراً من «التوقيع» باليد.. فالتعليم يفيد فقط في الدرس والتدريس!.

الماضي والمستقبل

للأديب: ممتاز مفتي

ممتاز مفتي أديب معاصر أبدع في فنون النثر المختلفة: فن القصة القصيرة، أدب الرحلات، فن المقال الصحفي الهادف، وبرغم بلوغه الثمانين وأكثر إلا أن قلمه - بفضل من الله - لا يزال ينضح بكل ما هو طيب، ولا يزال إنتاجه الأدبي متجدداً، وربيع إبداعاته مزهراً مورداً.

في قصصه القصيرة يركز الأديب ممتاز مفتي على الصراع النفسي الذي يظهر واضحاً جلياً على وجه الإنسان، ويغير من مخططات حياته، وعادة ما يركز الأديب أيضاً على جانب اللاشعور في شخصيات قصصه، وهذا ما نلاحظه في قصته التي ترجمناها هنا، وهي بعنوان (ماضي أو مستقبل) أي الماضي والمستقبل، وهي قصة تترك أثراً فريداً في نفس القارئ، وخاصة من يعيش في مجتمع مسلم، ويتفهم ما يدور في أيامنا هذه من صراعات أدت أحياناً إلى انحراف لدى بعض الناس ومواجهة لدى آخرين، ويرى ممتاز مفتي أن مهمة الأب أن يسمو بالإنسان إلى درجة الإنسانية، وأن يجعله يقترب من الله - عز وجل - وأن يوقظ العواطف في داخله.

الماضي والمستقبل :

كان المنظر من حوله بديعاً إلا أنه كان غارقاً في خيالاته وأفكاره لا يدري ما حوله، انتهى امتحان البكالوريوس فجأة مع زميل دراسته ناصر، كان يود أن يلتحق بالدراسة للحصول على الماجستير؛ حتى يجد فرصة للبقاء بعيداً عن البيت عامين آخرين، إلا أن والده عارض الفكرة بشدة، والآن يجب عليه أن يرجع إلى البيت، وبعودته إلى البيت يبدأ يناقش موضوع الزواج، فالوالدة منذ مدة، وهي تلح عليه ليتزوج، أما هو فلم يكن يرغب في الزواج، وحتى يطمئن الأسرة أخبرهم أنه سيفكر في الأمر بعد البكالوريوس، ولم تعد هناك ذريعة، ولا حجة تمكنه من إقناعهم بتأجيل الزواج، فراح يفكر: ما العمل الآن؟ وفجأة شعر وكأن سحابة ظليلة تعلو رأسه، فتطلع إلى أعلى فرأى خفير الاستراحة العجوز واقفاً أمامه، ويده مظروف ملون..

قال: «سيدي.. أنت نجل السيد...؟».

هزَّ عماد رأسه بالإيجاب، فقال العجوز:

«هذا الخطاب لك يا سيدي».

«خطاب لي؟! من أعطاه لك؟».

«سيدتي في الحجرة (رقم سبعة عشر) فوق.. وتقول: إنه من

الضروري أن ترد على هذا الخطاب، سوف أحضر غداً في الوقت نفسه؛ لأخذ الرد».

سلم العجوز الخطاب، وانطلق عائداً أدراجه، بينما ظل عماد في حيرة ودهشة وهو يمسك الخطاب في يده، من هذه يا ترى؟! قرأ الخطاب، فبهت إلى أبعد حد.. جاء فيه:

«سيدي العزيز! أنا خطيبتك، أنا لا أريد الزواج بك، ولأني فتاة لا يمكنني الإعلان عن رفضي، ولهذا أطلب منك أن تختلق أي عذر لترفض الزواج بي، فإن لم تفعل فحياة كل منا ستتحطم.. أرجوك استجب لطلبي، لا بد أن تكتب الرد على خطابي هذا.. ردّ في كلمتين.. وأحرق هذا الخطاب. شكراً جزيلاً، ومع السلامة.»

قرأ الخطاب فأصيب بصدمة، ففيه احتقار له، في وقت وجب عليه أن يفرح ويسرّ بمثل هذا الخطاب، لا شك أن «عتيقة» كانت خطيبته، لكن خطبته لها كانت خطبة بين الآباء وحدهم، فلم يكن قد رأى «عتيقة»، أقام والده حفل خطبتهما بطريقة جعلت الجميع يبهررون، ويتحدثون عنها، لكن ذلك كان في وقت اعتبر فيه نجل أبناء الذوات المدلل، ثم كان التحاقه بالكلية، الكلية أربكت عقله، فجعلته ينفر من البيت، لم يكن يرغب في العودة إلى بيت والده الشيخ الذي يهيمن على الناس بوقاره المصطنع، لم يكن يود أن يعيش كأحد أبناء الذوات، ثم يموت كأحد الشيوخ المقدسين في أنظار الناس.

في الكلية رأى البنات، فقرر ألا يتزوج «عتيقة»، لم تكن أسرة «عتيقة» تعجبه، كان ينظر إلى والدها «العلامة نور الدين» وكأنه مخلوق جاء من عالم آخر، فجميع أحاديثه تختلف عن بقية أحاديث العباد، ولباسه أيضاً كان مختلفاً: عباءة بيضاء براقفة فضفاضة مهلهلة وصدريّة سوداء باهتة

وعمامة بيضاء فوق خصلات شعر مقصوصة ووجه مدور أبيض ممزوج بالحمرة وعليه لحية كثة صبغها بلون أسود عجيب وعيناه محاطتان برموش كالأشواك.. كان يراه وكأنه إنسان زينوه بأدوات التجميل؛ ليقوم بتمثيل دور ما، كان في اهتمامه بهندامه وبنفسه لا يمكن إلا أن يشبه امرأة، ولم يقتصر الأمر على الشكل فقط، بل كانت طريقته وحركاته مختلفة عن أي إنسان طبيعي عادي، فقد كان العلامة نور الدين يتكلف الظهور بمظهر «الذوات» وكان يحاول أن يدخل في صوته نبرات عجيبة، فكان الصدى المصطنع الذي يخرج به بصعوبة حين يتكلم قد أثر على الأبال الصوتية في حلقة، وهكذا حرم تمامًا من القدرة على الحديث بطريقة عادية كعامة الناس، وكانت الهالات التي أحاطت بشخصية، العلامة نور الدين العلمية والتشريفية هالات ضخمة، حتى إن الإنسان يظل يقاسي من تأثيرها.

وكان عماد قد رأى أم «عتيقة» أيضًا لحظة، حين رفعت برقعها الحريري الأسود، وكأن ستارة قد ارتفعت من فوق المسرح وكأن مهرجانات من الألوان والأشكال تراءى له ومن الواضح أنها لم تفعل بنفسها هذا ولكن هناك من هياها هكذا، فليس فيها من صفات الحسن النسائي شيء يذكر، فالحسن الطبيعي تراه فتذوب تأثرًا به، يدخل على قلبك المحبة والسرور، الحسن الطبيعي يهز الإنسان بعنف يوقظه يقول له: انهض والنداء هنا ليس نداء عاديًا، بل هو نداء خاص، انهض وإلا فلن تكون هناك قيامة بعد هذا.. هذا هو نداء الحسن الحقيقي.. لا.. لا.. لا.. لن أتزوج فتاة أبوها هكذا، لن أتزوج فتاة هذه أمها، وإن كان لم يفهم كيف ينفذ قراره هذا!

أوجد جو الكلية كل هذا الاضطراب في داخله، فقبل قدومه إلى الكلية كان يمضي حياته في سكون باطمئنان، وهدوء كأحد «أبناء الذوات»

يرتدي صباح مساء ملابس البياض ويزين رأسه بعمامة، ويجلس إلى وسادة وثيرة، كأنه ملاك صغير ينحني الناس أمامه يحيونه ويلمسون قدميه، ثم يتراجعون باحترام شديد ويجلسون أمامه، ويجاوره والده صاحب المقام العالي والجاه، على وجهه نور، الحلم من طبيعته، في يده مسبحة تتحرك حباتها بين أصابعه دون انقطاع، وشفاته تتحركان كألة تتطق بالحمد والثناء، ومن حوله مريدوه والمعتقدون في بركته يتزاحمون عليه تزاحم النحل على الشهد، وكان صاحب المقام العالي والجاه لا يريد أن يتعلم «المحروس» ابنه في الكلية، فقد كان يعتقد أن التعليم في الكلية مجرد خرافات، فعنده العلم قاصر على التعليم الديني لا غير، وعارضت أم عماد هذه الفكرة وثبتت على معارضتها، حتى أذعن صاحب المقام العالي، وكان هذا بتدبير من أحوال عماد.

وفي الكلية بدأت حياة جديدة.. أصوات جديدة.. طرائق جديدة في التعامل.. وجوه جديدة، وشعر الفتى في هذا الجو وكأنه لا شيء، فهذا يناديه: «هيه أنت» وآخر يصيح فيه: «أوه.. إيه» اضطرب كثيراً في البداية، شعر كأنه ينزل من على عرش، ويوضع على الأرض، وظل هكذا مضطرباً شهراً أو شهرين، ثم استيقظت بالندريج في داخله مشاعر وإحساسات جديدة، وأصبح لهذه الأصوات والنداءات والطرائق والتعاملات مفهوم جديد، شعر أن هناك صداقة حقيقية، زمالة بالمعنى الصحيح، حرارة في الأصوات التي تنادي به دونما تكلف وتتعامل معه بفضوية كاملة، كان هناك إخلاص ومحبة وعلاقة حميمة، وهذه يمكن أن تنتج فقط من التعامل بين الزملاء على قدم المساواة، ولأول مرة يتعرف عماد على لذة التعامل مع عامة الناس، شعر أن هذه

هي حياته الحقيقية وأن هذا هو زمانه، وأن ما أمامه هو مستقبله، شعر كأن دنيا طفولته كانت دنيا صغيرة.. لا، لا لست مملوكًا لهذه الدنيا، وهكذا انقلب عقل عماد وانقلب تفكيره.

قرأ عماد خطاب عتيقة وأصابته صدمة مع أنه كان من الواجب أن يفرح.

اشترى ناصر علبة سجائر من السوق، ورجع ليجد صديقه عماد، وقد تغير مزاجه تمامًا، بل بدا لا يدرك ما حوله، فقد جلس كأنه صنم قد من صخر، فصاح فيه: «إيه.. ماذا أصابك؟».

نظر عماد إلى صديقه كاتم أسراره نظرة من لا حول له ولا قوة، فقفز ناصر وخطف الخطاب من يده، قرأه بسرعة، ثم قال: «يا فرج الله، لقد تحقق ما كنت تصبو إليه، عليك أن تقرح، لماذا هذا الغم والهم؟».

علت شفتي عماد بسمة خجولة، فصاح ناصر: «لكن يا صديقي، إنها فتاة رائعة حقًا.. كيف وصلك هذا الخطاب؟ وعن طريق أي بريد وصل؟».

فهزّ عماد رأسه بالنفي: «أحضره خفيّر الاستراحة..».

«من أين أحضره؟».

«من هناك فوق.. تنزل في الغرفة رقم سبعة عشر».

آه... صاح ناصر مسروراً: «إذا يمكنني أن أراها».

«أنت دائماً تعيش في واديك الخاص» قال عماد: «أنا الآن أفكر في الرد الذي سأكتبه»، فقال ناصر: «لا تتسرع قل لها أن تأتي بنفسها وناقش الأمر».

في ذلك اليوم بقي الاثنان معاً يفكران في كتابة الرد، حتى انتهيا بعد مدة، وبعد أن حمل الخفير الرد جلس الاثنان بين رجاء وخوف، وبينما هما كذلك دق جرس الباب..

«ادخل» نطق ناصر بالكلمة، وقلبه يدق بعنف.

دخل الخفير وقال: «الآنسة المحترمة سوف تشرف في تمام الساعة الثامنة» طلبا الشاي لتحياتها وأخذوا ينتظرانها، وفي تمام الثامنة دخلت الغرفة اثنتان، عتيقة وابنة عمها، وقد لفت كلُّ منهما نفسها بعباءة احتوتها تماماً. قال عماد: «تفضلاً».

أرخت عتيقة عباءتها ووضعتها على كتفها، لم تكن جميلة كما أنها لم تتزين مثلما تفعل أمها، إلا أنها كانت بلاء شديداً، كانت ملامحها حادة كحد السكين، كما اتسمت طريقته بالعنف، عنف أشبه بوخر قارص كوخز الإبر، لم يظهر عليها أي اضطراب، لم يكن هناك أي شعور بالاعتزاز ولا بالتواضع أيضاً، نهض ناصر، وقال: «تفضلاً أولاً قدحاً من الشاي وبعدها نتكلم «وسألهما»: «سكر.. ملعقة أو نصف ملعقة؟».

ردت: «ملعقة»

وضع ناصر أقداح الشاي أمامهما، وهو يقول: «من فضلك لماذا ترفضين عماد؟ هل شكله لا يعجب، أم...».

فابتسمت عتيقة، وقالت: «لا ليس الأمر كذلك».

«إذا هل هناك شخص آخر في...؟».

«لا.. لا.. ولا، هذا أيضًا. في الحقيقة أنا لا أريد أن أتزوج أحد أبناء الذوات».

«مع من تريدين الزواج إذا؟» ابتسم ناصر، وهو يسألها: «هناك بلا شك إنسان».

«لا أحد» قالت هذا بغيظ شديد: «سوف أتزوج من يوافقني في مسلكي».

فسألها ناصر من فوره: «مسلكك؟» وجلس عماد صامتًا، يطيل النظر في عتيقة، وهي تقول:

- «أريد أن أجعل حياتي كلها وقفًا على التبليغ».

قال عماد: «التبليغ.. إن والدك يقوم بهذه المهمة».

«لا..» صاحت وهي تردد: «لا.. لا.. هذا في الماضي... أبي ماض، أما المستقبل فهو أنا» وسيطرت عليها الحماسة، فأنزلت قدح الشاي ووضعته جانبًا وهزت رأسها، فانفك شعرها وبرزت ملامح وجهها أكثر فأكثر. قالت بغضب:

«أنا المستقبل.. نحن، نعم نحن، وما نريد، نحن نعمل ما يجب أن يكون، إن من يعتقد أن عصرنا عصر ضياع، عصر ضلال، كيف يمكنه أن يرشدنا إلى الطريق...» وتوقفت، ثم أردفت:

«إن من يرشدنا إلى الطريق يجب أن يكون مثلنا، وليس قادمًا من كوكب آخر» وتوقفت لحظة، ثم قالت:

«... يجب أن يكون مؤمنًا بضرورة العمل من أجل الإسلام ومبادئ الإسلام، لا أن ينشغل بالتسيب تارة واختلاق قضايا ومسائل فرعية تارة أخرى...» وسكتت، وأطبق الصمت على الغرفة بأكملها.

رفعت عتيقة قذح الشاي واحتسته بأكمله في رشفتين، ثم وجهت حديثها إلى عماد، وقالت بصوت خافت:

«توافقني على طلبي، أطلق سراحي، سأكون ممتنة لك، ولن أنسى هذا الجميل».

فقال عماد بصوت ضعيف: «أوافق، ولكن بشرط».

فانتفضت عتيقة، وقالت وهي تلوح بالقدح في يدها: «أوافق على كل شرط تطلبه في هذا الأمر».

قال عماد: «هل تعدينني إذا خرجت للتبليغ أن تأخذيني معك أيضًا؟».

ففرغت عتيقة، ونظرت بحيرة إلى عماد... طاخ!! وانفلت القذح من يدها، سقط على الأرض، تحطم، تحول إلى قطع صغيرة مدببة.. وساد الحجر صمت، وجلس الأربعة كلهم وكأنهم خشب مسندة!!.

obeikandi.com

كشف

للأديبة بانو قدسية

بانو قدسية أديبة معاصرة ترى الحياة بعينيها، وتمزج هذه الرؤية من خلال تجاربها وعادة ما تختار لقصصها تلك الشخصيات التي تعيش حياتها في مفترق الطرق، فدرس قضاياهم وتحللها، وتتعاطف أحياناً مع شخصيتها، فتجعل من حياتهم حكاية تنقلها إلى القارئ؛ ليطلع هو أيضاً على جوانب حياة هذه الشخصية، فيشاركهم همومهم.. وفي كتاباتها نشعر دائماً أنها أم تجلس، ومن حولها، وفي حضنها العديد من الأطفال.

وقصتها «كشف» والعنوان هكذا بالأردية أي كشف الوجه أو كشف الإنسان عما بداخله والتعبير عنه والإعلان عنه، وهي قصة تتناول القضايا الاجتماعية والمتاعب العائلية والأحداث التي يتم سردها بأسلوب الأدبية الرائع الذي تتميز به، ويلاحظ القارئ أن النتائج لا تأتي عادة طبقاً للتوقعات، والأدبية عادة توضح جانب اليأس لدى شخصياتها، ثم تجعل هذه الشخصيات في النهاية ترفض اليأس، وتبدأ حياة كلها أمل، ف«ضمير» في قصتها «كشف» نراه برغم يأسه

طوال حياته يعبر مفترق طريق الكراهية والحب؛ ليتخلص من أسلوب الحياة الذي لم يمكنه من اتخاذ قراراته، ويكشف عن ذلك بوضوح بعد أن ظل سنوات طوالاً يكتنم كل شيء بداخله.

كشف:

في ضوء النور القادم من مصابيح الحارة وقع نظره على «كوب» الشاي الأصفر الموجود على الطاولة.. ظل يراقب الكوب عدة ثوانٍ، ثم راح يفرك عينيه وينظر هنا وهناك.. أدرك «ضمير» أن ما أمامه هو «برطمان» المخلل الصغير، فيه ليمون أصفر، نهض واقترب من الطاولة وأعاد (برطمان) المخلل إلى الخزانة، هزّ «ضمير» رأسه يريد أن يخرج جميع النتائج من عقله، تلك النتائج التي ملأت دماغه بما كان في داخله من مرئيات، كان يتراءى له أحياناً أنه مصاب بمرض عقلي، أو بحالة نفسية، وكان يعتقد أحياناً أن نظره قد ضعف وكان يخشى أن يكون الجن قد سيطر عليه أو لبسته روح العفريت.. وبعد محاولات عديدة أخرج من داخله هذا الظن، إنه لا يرى الحقيقة كما يجب أن يراها والوقائع والأحوال والناس ليسوا هم كما كان يراهم..

هل كان يفحص ويدقق في الظروف المتغيرة من حوله؟ هل حقاً كان يمكن أن يقيم مع أسرته؟ هل تغيرت القيم في بيته، ولم يدرك عن ذلك شيئاً؟! وهل، وهل... بدا وكأنه إحدى عجالات آلة تحطم أحد تروسها، فراحت تدور مصدرة صوتاً متقطعاً في كل دورة.. تريك.. تريك..

أعاد قراءة الخطاب مرة أخرى، ثم طواه ووضعه في جيبه، كان هذا الخطاب لا يمت بصلة من قريب أو بعيد إلى قراره الذي يود أن يتخذه وجاء صوت أخته الكبرى من الحجرة الداخلية يناديه:

«ضمير..»

رغب كعادته أن يلقي بنداء أخته وراء ظهره.. أن يهمله.. فأخته الكبرى هي أخته على كل حال وليست أمه، ولكن التربية - داخل البيت الذي يقع في نهاية الحارة - القائمة على احترام الصغير للكبير جعلت هذا أمرًا لا شعوريًا لديه.. كان من داخله تأثرًا تتنازعه المشاعر المختلفة...

«ضمير! ماذا فكرت..؟»

«أنا..»

«نعم أنت..»

«ماذا يمكنني أن أفكر وسط هذه الظروف..؟»

«اترك الظروف.. مرت ثلاث سنوات على الخطبة، وأهل الفتاة يطلبون تحديد موعد الزواج».

«نعم... تاريخ..؟ يطلبون...»

«أسمعني قرارك بسرعة، وإلا قمت أنا بتحديد أي تاريخ».

نظر «ضمير» ناحية أخته الواقفة أمام الشباك المفتوح جهة الحارة.. كان يحب أخته الكبرى حباً جماً بقدر ما كان يكرهها كراهية شديدة..! كان يرى في أخته الكبرى (كشور) تمثالاً حياً يقف أمامه متحدثاً عن المسؤوليات والواجبات.. كانت محبة أخته الكبرى بدخله مثل حجر ثقيل حط في الماء، بينما ظلت حوله دوائر الكراهية التي لا تحصى باقية على سطح الماء تتحرك دون توقف.. بدأ يفكر، يتساءل: لماذا هذا التعلق الشديد بأختي الكبرى؟ يمكنني أن أنهي هذا الشعور في لمحة واحدة، لكن هذا لم يحدث... هبط السلالم في غضب وانطلق يمضي في الحارة.

كان هذا دائماً هورد الفعل الذي يصدر عنه، إما ينزل إلى الحارة أو يصعد إلى الطابق العلوي أو السطح، فيبدأ التجول هناك.. دائماً يشعر بضرورة للمشي؛ حتى يعيد حالته الداخلية إلى طبيعتها.. وهكذا ظل يمشي عدة ساعات حتى يصيب نفسه بالتعب والإرهاق.

كانت نغمات «الموال» التي تبعث من دكان شرائط «الفيديو» في الحارة تعجبه كثيراً حين يكون في حالته الطبيعية، لكنه الآن يشعر بالنفور، لا يريد أن يسمع أي «موال»..

وعلى جانب الشارع الكبير المتصل بالسوق كانت هناك حديقة صغيرة، كان المكان منطقة واسعة في وقت من الأوقات تتجمع فيها النساء الهندوكيات في أعياد الديوالي والدسيهره، فيقمن الزينات ويصدحن بالأغنيات طوال تلك الاحتفالات، وبعد قيام باكستان بدأ الناس يجعلونها مربطاً للجاموس.. ولمدة طويلة، وفي ليالي الصيف

خاصة كان العفن المنبعث منها يصل إلى كل بيت من بيوت الحارة، وحين تقرر إخراج الجاموس من المدينة تم تسوير هذه المنطقة من جميع جهاتها بسور من الصفيح الأبيض، ثم أصبحت فيما بعد منتزهًا أقاموا فيه بعض المقاعد الخرسانية، ووضعوا فيه بعض الأراجيح المكسرة وغرسوا بعض الأشجار، بينما نمت الحشائش الطبيعية، فأقاموا ممرات وأرصفة من الحجارة، وفوق الحشائش الخضراء راحت أكياس «البلاستيك» الفارغة تتطاير هنا وهناك، وتجمعت أشياء لا فائدة منها مكونة أكوامًا من الزباله والقاذورات.. وقد أطلق أهل الحارة على المنتزه اسم «حديقة الأراجيح».. وفي حديقة الأراجيح هذه كان «ضمير» يقضي الساعات الطوال جالساً.. ماشياً.. مفكراً..

والآن أيضاً.. قدم إلى هذه الحديقة، وجلس على أحد مقاعدها، وأخرج من جيبه الخطاب.. قرأه.. وطواه.. ثم عاد ووضعه في جيبه من جديد، واستدار، ونظر ناحية الحارة..

في نهاية هذه الحارة يقع بيته المشيد بالخرسانة والحجارة، المكون من ثلاثة طوابق، حيث تقيم فيه أخناه اللتان أنهيتا دراستهما للماجستير بالانتساب.

تتتمي هذه الأسرة إلى عائلة الراجبوت التي اشتهرت بالغيرة والنخوة والشهامة، وأختا «ضمير» فتانان سمراوان، أنفاهما عاليان معقوفان كأنف بيغاء، تمتلكان إرادة قوية وفكرًا طاهرًا بالوراثة.. وهما تعدان السلام على أحد أو إظهار الشعور بالعطف تجاه أحد أو حتى الذهاب لزيارة أحد إساءة لسمعة العائلة ولهما شخصياً... وهما تقتربان من الثلاثين، ولم تتزوجا بعد.

من وجهة نظر «ضمير» كانت أختاه معقدتين نفسياً، فكان يحبهما بقدر ما كان ينفر منهما، كان دائماً يرى أن الناس والأماكن والأحداث والظروف تستحق الحب والكرهية في آن واحد..!!

قبل ثلاث سنوات حين التحق بالجامعة التقى «بحسنة».. ليس في الجامعة، بل في بيت يقع بعد بيته بخمسة بيوت، كانت حسنة تسكن مثله في بيت مشيد بالحجارة والخرسانة يتكون من ثلاثة طوابق.. وفي الطابقين العلويين شيدت شرفة جميلة من الخشب لم يكن لها نصيب منذ سنوات من الطلاء.. وفي هذه الشرفة وضع بعض الأثاث الذي أصابته الشمس والمطر بالكلاحة، فلم يكن هناك في البيت من يفتح أبواب الشرفات أو حتى يقترب منها، فأهل البيت ينتمون إلى السادة وجو البيت كله جو ديني، فالجميع تربى في بيئة دينية محافظة، والنساء قانعات راضيات مسرورات بما يقمن به من أعمال في البيت من عجيب لعمل الخبز، وإعداد الطعام، ورعاية البيت، والمشاركة داخل البيت في إعداد ما يلزم للاحتفال بالمناسبات الدينية والأعياد ويدرشن ويستمعن إلى الأحاديث المتعلقة بالبنات وخطبتهن وزواجهن، لكنهن لا يمكنهن المشاركة في كل هذه الأمور خارج البيت.. يحترمن الوالدين.. إلا أن حسنة كانت تجد نفسها مجبرة أحياناً على العصيان؛ لأن أمها تخفيها تماماً عن الأعين كما تخفي ثروة، وكانت أمها تجبرها على الاختفاء عن أعين المتلصقين، وفي ظل هذه الظروف أنهت حسنة دراستها للماجستير دون حاجة إلى الذهاب إلى الجامعة، فقد درست طالبة منتسبة، ومن هنا كانت تذهب إلى بيت «ضمير» لتحصل على مذكرات مادة الدراسات الإسلامية من أخته «زينة».

كانت حسنة وأخواتها مثقفات متعلمات، لكن مجتمعهن في بيتهن لم يكن مجتمعاً تتكشف فيه النساء على الرجال.. فهن يخشين الجنس الآخر، ويهربنه، ويخفن منه، وكأنهن يخشين الإصابة بمرض معد من جنس الرجال.

اليوم الأول الذي رأى فيه «ضمير» حسنة كان يقف أمام محل شرائط «الفيديو» يدخل سيجارة، وكانت الحارة قد أصابها الوحل في ليلة ممطرة.. وبدت خالية من الحياة، وكانت الأحجار القديمة الملساء «تزلق» من لا ينتبه إليها.. ظهرت حسنة من بعيد، كانت تلبس في قدميها حذاء ذا كعب عال، وترتدي ثوباً مليئاً بالطيات ووضعت على وجهها خماراً أسود، وعلقت في ذراعها حقيبة كبيرة من الجلد الطبيعي، وفوق رأسها «شالاً» أسود مزخرفاً بورود كبيرة الحجم..

واضطر «ضمير» إلى الاستماع إلى وقع أقدامها داخل الحذاء ذي الكعب العالي؛ لأن مثل هذا الصوت لا يصدر في الحارة إلا من قدميها هي.. وحين اقتربت حسنة من محل شرائط «الفيديو» إذا بها تتزلق وتسقط على الأرض، فتقع منها حقيبتها الكبيرة، ويطير خمارها الأسود وتبتعد عنها فردة من حذائها... ربما اضطربت حسنة بسبب نظرات أهل السوق الموجهة إليها كالسهام.. وربما كان السبب «زحلقة» الطريق أو ربما خدعها ذلك الكعب العالي، أو ربما لم تكن لديها تجربة في الانكشاف على الناس.. على كل حال حين سقطت على الأرض راحت الدموع تتسكب من عينيها بغزارة، بسبب وقوعها على الأرض أو بسبب إحساسها بالخجل والمهانة أمام الناس.

بعد هذه الواقعة بدأ «ضمير» في مساعدة «حسنة» وتمكن من الفوز باهتمامها تمامًا كالشاطر حسن أو كبطل من أبطال الحكايات الشعبية الآخرين، ولأول مرة يشعر «ضمير» بالتفريق بين الحب والكرهية، ولأول مرة يشعر أنه دخل إلى قصر المحبة الصافية..

كانت حسنة كلما التحفت بالشال الأسود، ولبست الحذاء ذا الكعب العالي في قدميها، وجاءت إلى بيت «ضمير»، يظل «ضمير» يحوم حولها: «أختي زينة.. هل تريدين الشاي؟.. هل أحضر لك مشروبًا باردًا..؟».

وأخيرًا تبادل الحديث مع حسنة:

«لماذا لم تأتِ بالأمس؟».

«نعم.. من يمكنه أن يأتي كل يوم؟».

لماذا لا يمكن أن تأتي كل يوم؟ ويصر «ضمير» على سؤاله، فقد تمكن من قلب حسنة، وكان بدوره يشعر براحة عجيبة، وهو يحاول أن يقنعها في أثناء الحديث، إذ كان يريد أن يثبت ذاته ويضعكم بمسؤولية ما تمامًا مثل أخته الكبرى.

«أمي لا تسمح لي، حتى بالذهاب إلى السوق، فكيف تسمح لي بالمجيء هنا كل يوم؟».

«تعالى معي إلى الجامعة مرة، وسوف تريين.. البنات يأتين وحدهن.. يقدن السيارات بأنفسهن.. يجلسن في الكافيتريا «وحدهن

يشربن الشاي، وأمك التي تنتمي إلى القرن السادس عشر جعلت منك خاتماً وضعته في علبة مزخرفة».

«أهذا ذنبي؟.. أخبرني؟!».

كان بياض وجه حسنة ناصعاً تموج فيه حمرة وردية، وكانت عيناها مدورتين واسعتين، وجنتاها كوردة مدورة لم تتفتح تماماً، أما رقيبتها فكانت مكتنزة وكتفاها عريضين وجسمها ممتلئاً.. تبدو للناظرين أكبر من سنّها الحقيقية، ونظراً لقوة جسمها، فملاحم الصحة تظهر على وجهها.. لم تكن حسنة بقادرة على أن تغضب من الناس مدة طويلة، وكانت تتقبل فشلها بكل سرور، إذا تحققت لها أمنية فرحت وسرّت وإلا فإنها لا تسعى لتحقيقها، فقد تربت على الصبر وتحمل الفشل ولم يكن هذا نتيجة لضعف فيها، ولكن ربما لعدم اهتمامها بالأمر التي تدور من حولها، حتى لو كانت تتعلق بها شخصياً، ولهذا فقد كان يمكنها الاسترخاء على السرير و«الدردشة» مع صديقاتها مدة طويلة أو اللعب مع الأطفال، كما كانت تفضل أن تقضي الوقت في التطريز وطبع الصور على القماش أو حياكة قمصان لصديقاتها، كما كانت تميل إلى مساعدة العمات والخالات في أداء واجباتهن المنزلية..

كانت كلما التقت بـ«ضمير» تحدّثه بكل سرور، وفرح عن الطعام والموائد والمشروبات والحلوى، وكانت تعشق كل أنواع الأطباق وخاصة تلك التي تحتوي على اللحوم والدواجن وأطباق الحلوى المليئة بالسمن والقشدة، كما كانت تفضل الألوان الزاهية، وبصفة عامة كانت ملابسها على جسمها كالألعب النارية في السماء.

كان نديم على دراية كاملة بالميراث الثقافي للناس الذين يعيشون في وسط المدينة، لكن دراسته في الجامعة بعيداً عن المدينة غيرت بلا شك من نظرياته وأفكاره، كان يريد أن ينقل أهل بيته الذين بقي منهم الآن أخته فقط إلى القرن العشرين، وضمن هذه المحاولة كان كلما تحدث مع أخته الكبرى زرينة أعرضت عنه..

«لو كانت أمي ولو كان أبي على قيد الحياة لكان هناك شأن آخر».

كان قلبه صغيراً مفعماً بالحب لجميع أهل البيت.. ومرت الأيام.. وجاء اليوم الذي تحملت فيه أخته الكبرى المسؤولية.. فراحت تصدر أوامرها:

«لا تتم في الطابق الثاني.. لا تلبس بنطلونات الجينز»... لا ترفع صوت المسجل بالموسيقى الصاخبة.. لماذا تضع على حائط غرفتك هذا التقويم الذي يحمل صورة اللاعب «عمران خان»؟.. لماذا تفضل صور الممثلات الهندوكيات؟.. إذا أردت الاستماع إلى الغناء فاستمع إلى الأناشيد القومية، أكل «سندويتشات الهمبرغر» من الخزعبلات.. لماذا تضع سلسلة في عنقك كالبنات؟..».

لم يكن هناك من الأطفال أو الصغار من يشغل الأخت الكبرى أو زرينة لم يكن في البيت غير «ضمير»، فأراد أن يروضه تماماً كما تروض حيوانات «السرك» وكان «ضمير» بداخله صراع.. كان يريد أن يكون بدوره رجل البيت بين أخته اللتين تسكنان معه في البيت.. يريد أن يتولى المصاريف والنفقات، يريد أن يكون بيده إصدار جميع القرارات، ولا يزال يتذكر جيداً ذلك اليوم، حين نجح في امتحان

البكالوريوس بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، فانطلق فرحًا إلى أخته الكبرى:

«أختاه! لقد نجحت بتقدير ممتاز.. نعم ممتاز..».

وكانت الأخت كعادتها تطل من النافذة المفتوحة على الحارة، تشاهد ما يدور فيها، ففتحت درج الطاولة، وأخرجت ورقة من فئة عشر روبيات، وقالت:

«إذا يجب أن تنال جائزة».

«أعتقد... يجب أن نشترى سيارة.. إن لنا مكانة في هذه المنطقة، ونحن أصحاب أملاك أيضًا».

«إيه..؟ ماذا فعلت بالسيارة؟ أنا وزرینه قلّ أن نخرج من باب البيت، كما أننا لا نريد إفسادك..».

وفي لمحة انتهى كل سروره بنجاحه بتفوق، وبدأ بداخله إحساس بالغضب سرى في جسده، فالأختان لا تفكران إلا في نفسيهما فقط.. في البيت تطبخان ما يعجبهما من طعام، وتقوم كل منهما بدعوة من تريد من الضيوف إلى البيت، والأخت الكبرى لا تجعله حتى يلمس «الشيكات» ولا تسمح له باتخاذ أي قرار مهم، ولكن إذا وقعتا في مشكلة فما تقومان بإيقاعه فيما يخجله، وتحملانه المسؤولية..

«ضمير» اذهب إلى «خالة حميدة» وأخبرها أننا لا يمكن أن نقرضها مبلغ عشرين ألف روبية.. فمن هنا بعد أبنينا يكسب لنا رزقنا؟!».

«يا أختاه، أخبريها أنت بذلك الأمر» ويتلثم «ضمير» وهو يرد على أخته الكبرى.

«يا أخي.. أنت الرجل الوحيد في البيت.. وجميع القرارات المهمة يجب أن تكون عليك.. متى تتحمل المسؤولية؟! في أي يوم ستصبح رب العائلة؟! اذهب وأخبرها بذلك في حزم، وإلا جاءت لتطلب المبلغ...».

كان «ضمير» يحب خالته حميدة كثيراً، وطوال الطريق كان يفور بالغضب من داخله من جراء ما به من صراع.. فمشاعر الكراهية تتصارع بداخله مع مشاعر الحب، ويظل يفكر في العبارات التي ستساعده وتعينه؛ حتى يتمكن من الحديث مع خالته حميدة.. فخالته - من بعد أمه - منحته حبها، فكيف يمكنه أن يخبرها بهذا الأمر بكلمات واضحة.. كانت هذه الفكرة تعتلج بداخله..

والآن الأخت الكبرى تريد منه قراراً..

بدأ يتمشى في حديقة الأراجيح حيناً، ويتجه إلى محل شرائط «الفيديو» ليتحدث مع صاحبه حيناً ويمضي ليتحدث مع صاحب محل الأحذية يسأله عن أنواع الأحذية، بينما يذكر له صاحب المحل أنواع الجلد والبلاستيك الذي نضع فيه الأحذية، وما في البلاستيك من شحنات كهربائية تجعله يلتصق بالأحذية، فيصعب فصلها عنه...

كان بينه وبين حسنة مناقشات بسيطة ومناقشات.. عواطف هادئة من الحب، ومشاعر بسيطة من الكراهية.. كل هذا تغفل بداخله، وأصبح من الصعب أن يتخلص منه، كانت رغبة «ضمير» للاستعراض

قد زادت.. وشعر أن علاقته بالحارة لم تعد كما كانت وثيقة متينة، بل صارت هشّة، وخاصة بعد ظهور القيم المتغيرة من حوله وأساليب التعليم والحياة الحديثة.. لم تعد علاقته قوية بطريقة الحياة التي يعيشها، وبالأفكار والعادات والتقاليد السائدة.. خرجت الضفدعة من البئر، مضت على ساحل البحر.. تحطم فيها وفاؤها للبئر.. لكن حسنة لا تزال حتى الآن الورد في العصير.. لا تزال كما هي قابضة وسط ثقافة الحارة وحضارتها، تعيش حياتها بترف ورفاهية..

«لقد تغير الوقت يا حسنة... يجب علينا أن نغير نظارتنا...».

وتعد حسنة جملة هذه لوح زجاج غير مصقول يحول بينهما، فتقول له:

«منذ ذهبت إلى الجامعة، ومحبتك تقل يوماً بعد يوم».

ويبدأ «بندول» المحبة داخل «ضمير» يتجه ناحية الكراهية، وتضطرب مشاعرهما معاً وتموج عواطفهما..

«الإحساس والتفكير شيئان مختلفان يا حسنة... في تفكيري سعة بلا شك، لكن إحساسي كما هو.. لم يتغير».

«وتبدأ حسنة في البكاء.. منذ طفولتها تعلمت استخدام سلاح واحد إذا ما واجهتها مشكلة ما»..

«إذا كان التفكير يتغير، فإن الإحساس يتغير أيضاً... أنت تغيرت أيضاً؟!».

شعر ضمير أمام الدموع المنهمرة بالضعف والهزيمة..

«حسنة.. والله.. إن سعة الفكر لا تقضي أبداً على ثروة الإحساس،
فارتداء «الجينز» و«أكل» سندويتشات الهمبرغر «لا يغير الإنسان...».

«هذا ما تقوله أنت.. لكن كلامك وأسلوبك، طريقتك.. كل هذا
تغير.. فقط أنت وحدك لا تدري...».

«عزيزتي.. كل ما هنالك أن في تفكيري قليلاً من العمق، وقليلاً
من السعة فقط».

«أول أمس كنت أتحدث عن الثقافة، وأنت قلت: إنها ثقافة
دقيانوسية» قالت هذه العبارة، وهي تبكي.

«وعندك أن الثقافة والحضارة هي الله..؟».

«يا أخي، افتح عقلك قليلاً... الثقافة والحضارة ليست طيبة وليست
سيئة، ليست سوداء وليست زرقاء الثقافة، ثقافة فقط، فنحن نعيش مع
الناس وتغير بطريقة لا شعورية أليس كذلك؟ فكيف يمكن أن أقول: إن
ثقافتي ثقافة سيئة؟ لقد نشأت فيها، وتربيت على أساسها...».

جفت دموع حسنة، وبدت له كأنها مثل أخته كشور، مظهرها مظهر
من يملك بزمام الأمور ومن يتحمل المسؤولية..

«الأسبوع الماضي كنت تتحدث، وتتكلم ضد الدين...».

«أنا؟! ضد الدين؟!».

«ألم تقل: إنه لا وجود للجن؟».

«أنا لم أقل هذا.. لم أقل: إن الجن غير موجودين، كل ما قلته: إن العلم لم يثبت ذلك بالدليل المادي حتى الآن».

«هذا هو المعنى نفسه».

«ماذا؟».

«أي أن اعتقادك ضعيف».

«العلم شيء والاعتقاد شيء آخر...».

«إن من يتحدث حديث العلم يقل اعتقاده تدريجياً، ولا تبقى محبة الإسلام بداخله...».

«من قال لك: إن الإسلام ضد العلم؟! ليس الإسلام.. لكنها ثقافتك المفضلة التي لا تريد أن يصل العلم إلى هذا البلد.. أتدرين أن العصر الذهبي للإسلام هو العصر الذي شهد مولد العديد من العلماء الكبار الذين أثروا في العالم كله...».

«لا أدري شيئاً.. منذ تغير تفكيرك تغيرت بأكملك».

ولفت حسنة، وهي تبكي نفسها بالاشال الأسود، وبدأ صوت حذائها يدق الأرض، واتجهت عائدة إلى بيتها وتحرك «ضمير» أيضاً.. وصل إلى ذلك الجدار المعلق عليه تعويذة منع الحسد.. ثم استدار فوق نظره على ذلك المكان الذي طالما راحت تطير منه طائرته الورقية

في صغره.. راح يتذكر السباق بينه وبين أقرانه ومعاكساتهم بعضهم بعضاً.. راح يتذكر جلوسه في المساء أو ركوبه الدراجات وتترأى أمامه تلك التعويذة المعلقة في رقبة الخروف الذي ذبح لتوه، وعلق في ذلك المكان.. ثم خطا خطوات تجاه ذلك القدر الكبير.. كان دائماً ينظر إليه يمعن النظر ناحيته، فيتخيل رأس المرأة التي تخبز من خلف القدر رأس جن أو عفريتاً يتجه إلى السماء ليطير، بينما ينتظر هو رؤية يديها ورجليها، متخيلاً أنها ستخرج من القدر والدخان يتصاعد من تحته.. كم تخيل الجن، وقد طار في السماء، وكاد يسقط على طائرته الورقية.. راح يتذكر تلك الموالد والاحتفالات التي كانت تعقد في الطابق العلوي.. وتذكر أختيه في البيت، فراح يحاول الوصول إلى نتيجة تتعلق بهما وبحسنة أيضاً.. كان يود أن يصل إلى نتيجة إيجابية فيما يتعلق بثقافته.. نتيجة تجعله لا يخجل من هذه الثقافة إذا ما عاش فيها ومارسها وتعامل معها... ويريد أن يمسك بزمام دينه في يده لا يفلت منه..

لكن لم يكن بداخله الحماسة، ولم تكن بداخله العاطفة القوية لتحقيق ما يريد..

وحين اتجه إلى ذلك المكان الذي اعتاد منذ صغره خامره الإحساس بالكراهية والمحبة معاً، وحين اتجه إلى تلك المنطقة التي طالما أقيمت فيها الاحتفالات في الماضي هاجمته الوسوس والشكوك..

وفي «حديقة الأراجيح» وحين أخرج الخطاب من جيبه لآخر مرة.. قرأه، فانكشفت أمامه فجأة حقيقة أن الذنب كله ذنب اتخاذ القرار..

إيجابياً كان أم سلبياً.. فحين يصل الإنسان في أي لحظة إلى قرار، فإن بقية المراحل سوف تتحدد من تلقاء نفسها... لم تعد هناك ضرورة عنده لرؤية مسافة أخرى.. لقد ترك الاستعانة بالمنظار المكبر الذي يقرب له البعيد، وكذا ترك الاستعانة «بالميكروسكوب» ووصل بنفسه إلى نتيجة حتمية.

وخطا «ضمير» خطوات بطيئة بين ممرات «حديقة الأراجيح» واتجه إلى الشارع الذي يقع فيه بيته.. وصل إلى البيت، كان يريد أن يحدث أخته الكبرى فيما يتعلق بتحديد موعد الزواج.. في الطريق ألقى السلام على دين محمد الخياط، فهو منذ مدة يحوك ملابس أخته..

«السلام عليكم..»

نظر «ضمير» إلى دين محمد، وكأنه يشاهده لأول مرة.. رأى فوق جبهته غدة كبيرة وتعرجات كثيرة..

«يا أسطى! هل تؤدي لي خدمة؟».

«بسم الله.. سمعاً وطاعة».

«انظر..» وأخرج «ضمير» من جيبه مظروفاً أراه لدين محمد، وهو يقول..

«لقد وجدت وظيفة طيبة في كراتشي.. اذهب إلى أختي الكبرى،

وأخبرها بالأمر..».

واضطرب دين محمد الخياط لحظات..

«يا أخي.. لم يبقَ على بيتك سوى خطوات أربع.. اذهب بنفسك وأخبرها» قال دين محمد هذه العبارة وقد بدت عليه علامات الخوف.
«حاول أن تفهم.. لو ذهبت إلى البيت، فلن أتمكن من الذهاب إلى كراتشي».

«على رسلك، لكن لماذا هذه العجلة؟».

«طبعاً أنا في عجلة.. فمعي صديق.. والطائرة ستقلع بعد نصف ساعة، ولعله اشترى تذكري الآن.. تذكر أخبر أختي بالأ تعلق».

«يا للعجب!..» ورفع دين محمد الخياط يده، وكأنه يسحب خيطاً «لضمه» في إبرة... هذا بينما أعطى «ضمير» ظهره لدين محمد، ومضى يرفع رجليه الطويلتين، وانطلق إلى الشارع، وهو ينظر إلى يمامة وقفت على عمود النور الكهربائي أمامه دون أن تحرك ساكناً.

كان «ضمير» كما هو دائماً على استعداد للتفكير في أن ما قد يصدر عنه قد يكون فيه ظلم لشقيقته، ولحسنة أيضاً، لكنه ولأول مرة ظل يمشي.. لم يلتفت خلفه.

كان في قراره هذا قوة تمكنه من أن ينهي النزاع القائم بداخله بين الحب والكراهية.. وحتى لو كان هذا القرار قراراً بالهجرة، لكنه بدأ يشعر أن فيه تحريراً له من حياته تلك.. تحريراً له من النفاق الذي سيطر على مشاعره.. تحريراً له من تلك المسؤولية التي لم تجعله

يتخذ قراراته بنفسه.. تحريراً له من غموض ذاته.. فهو لا يريد - بعد اليوم - أن يظل في مفترق واسع بين مشاعر الحب ومشاعر الكراهية.. وبعد مدة لم يعد ينظر خلفه.. ناحية الحارة.. كان على يقين من أنه لو نظر خلفه مرة واحدة لتحول إلى حجر.

س

obeikandi.com

وخر

للأديب: أحمد نديم قاسمي

أحمد نديم قاسمي أديب باكستاني قضى طفولته وصباه في ريف منطقة البنجاب، فشاهد عن قرب حياة أهل الريف بجميع طبقاتهم، ومن هنا وجدت شخصية الريف طريقاً إلى قصصه التي صاغها بأسلوب معبر يمتاز بالسهولة والبساطة.

ويمكن القول باختصار شديد: إن أحمد نديم قاسمي أوجد مكاناً رحباً للريف في القصة الأردنية، يذكرنا بمكانة الريف في كتابات الأديب العربي محمد عبد الحليم عبد الله مثلاً مع الفارق في المعالجة لاختلاف البيئة والظروف. وتشهد على ذلك مجموعته القصصية الأردنية التي نشرها بعنوان «الحجر الأزرق» عام ١٩٨٠م ومجموعته الأخرى بعنوان «زهرة القطن» وأنوار القطن إن صح التعبير، وبسبب هذه القصص الرائعة نال أحمد نديم قاسمي شهرة واسعة في الأوساط الأدبية؛ ذلك لأن أسلوبه في معالجة قضايا وطريقته في عرض شخوصه مختلف عن أدباء الأردنية الآخرين ممن عالجوا أيضاً موضوعات الريف في قصصهم من أمثال الأديب غلام الثقليين نقوي والأديبة جميلة هاشمي، والأديب صادق حسين، وغيرهم.

وقصته «وخز» يعالج فيها هوس جمع المال في أوساط «المستشixين» الذين اتخذوا من المزارات والأضرحة وسيلة لنهب الناس البسطاء واستغلالهم، يفسدون عليهم عقيدتهم ويوقعونهم في حبال الشريك بعد أن يكونوا قد أبعدهم عن صفاء عقيدة التوحيد ونقاها، التي هي أساس الدين الحنيف.

وتعد هذه القصة التي نقلها عن الأردية إلى العربية - بأمانة ودقة ومراعاة عامة للنص الأردى - من الروائع الأدبية للأديب أحمد نديم قاسمى.

وخز:

لم يفهم أحد كيف ظهر هذا الحب الإلهى فى قلب شمشاد على وفى هذا العمر؟! ذلك الشاب الوجىة الذى كانت أنظار الناس تتعلق به حيثما مضى... كانت شعرات ذهبية متفرقة تلمع وتبرق فى لحيته التى نبتت حديثاً وفى شاربه أيضاً، أما إنسان عينيه فكان يبدو أحياناً للناظرين بلون اللوز الداكن وأحياناً يبدو بلون يميل إلى الزرقة، كان الناس قد اعتادوا مشاهدته، حين كان يخرج من بيته ذاهباً إلى المسجد، وحين كان يعود إلى بيته قادماً من المسجد، ولم يحدث أن وقع نظرهم عليه فى أى مكان آخر علاوة على ذلك. كان شمشاد على يجلس فى المسجد مدداً طويلة، ويستغرق فى تلاوة القرآن الكريم.

وفى البيت كان يجلس مفترشاً سجادة الصلاة، يردد الأدعية والأذكار ساعات طويلة، فساور الخوف إخوته الكبار؛ ظناً منهم أن يكون أخوهم الأصغر شمشاد على قد «انجذب» وأخذه الوجد، وسيظل هكذا «مجنوناً»، فزوجوه...

وصار شمشاد أباً، إلا أن حبه لأهله كان من نوع عجيب، فكان بعد أن يتم قراءة الأدعية والأذكار ينهض وينفخ في وجه طفله القابع في حضن أمه حيناً أو يقوم بتمرير أنفاسه بامتداد جسم طفله النائم في مهده حيناً آخر، وكأنه ينقل ثواب جميع الأدعية والأذكار التي قرأها إلى وليده، ومن ثم يأخذ طريقه إلى المسجد. وكم من مرة أجلسوه وأفهموه أن تلاوة الأدعية والأذكار شيء طيب، إلا أن الإنسان الحي عليه واجبات أخرى كثيرة، فهو رجل لزوجة كما أنه والد لابن، وعليه بعض الواجبات لا بد أن يقوم بها، ولكنه كان يجلس، وقد ازدانت شفتاه بابتسامة لم تكتمل، وحين يبدأ الجميع في التفرق، ينهض هو أيضاً ويتجه إلى المسجد...

في فصل الشتاء كان يعاند فيتوضأ بالماء البارد، معتبراً هذا جزءاً من العبادة أيضاً، ومن ثم كان يضع جانباً إبريق الماء الساخن الذي كانت زوجته تحمله إليه، حتى ظهرت الشقوق في كعبيه وتسرخ جلد أصابع يديه وتحول إلى قشور، وبرغم هذا ظلت الابتسامة التي لم تكتمل بعد تزين شفثيه، واستمرت حياته على هذا المنوال.

كان شمشاد علي ينتمي إلى أسرة اشتهر أفرادها بين الناس بالانقطاع إلى عبادة الله، أسرة ورث أفرادها المشيخة أباً عن جد، إلا أن مزار شيوخ هذه الأسرة كان بعيداً عن القرية في موضع يقال له: «وندي شيخان» وكان الأخ الأكبر، ويدعى أمجد علي هو «الخليفة» بين أفراد هذه الأسرة، وكان كلما رجع من «وندي شيخان» إلى قريته يظل قلقاً وهو يشاهد أخاه في حالة الطرب هذه، منتشياً بذكر الله، ويظل يفكر ويفكر وفي النهاية وذات يوم، وبعد التشاور مع إخوته قرر ضرورة

أخذ شمشاد علي إلى «وندي شيخان» إلى «المزار» فإذا لم يتراجع بأي شكل من الأشكال عن هذا الاستغراق المستمر في تلاوة أدعيته وأذكاره وقراءة أوراده، وجب إبقاؤه في المزار، حيث (خانقاه) الآباء والأجداد، فمن الممكن أن يفيق قليلاً مما هو فيه، ويكون بشكل أو بآخر ذا فائدة لأخيه الأكبر أمجد علي، وحين أخبر شمشاد علي بأن أخاه الأكبر سيأخذه إلى المزار قال: «حسنًا... ليأخذني إلى هناك، فالله هو الله في كل مكان، والقرآن هو القرآن في كل مكان، لا يفرق الأمر معي شيئاً».

وفي «وندي شيخان» أجلس شمشاد علي في جانب من المزار على مسند المشيخة، وظل جالساً منشغلاً بما هو فيه كعادته كل يوم، وحين علم المريدون أنه هو الشيخ الصغير، تدفقوا عليه جماعات جماعات؛ نظراً لاعتقادهم في ولايته، وراحوا يقبلون يديه حتى ابتلتا، وراحوا يتمسحون بركبتيه حتى اتسخ سرواله من أوله إلى آخره، ومع هذا استمر شمشاد علي في تلاوة أوراده وأذكاره وترديد أدعيته، دون أن يعير هؤلاء المريدين المتمسحين به أدنى اهتمام، وربما قال لهم مرة أو مرتين: «هاكم أخي، إنه يجلس هناك؛ ولما لم يهتم المريدون بما يقول تراجع وانكمش على نفسه واستمر فيما هو عليه، وفي تلك الأثناء شاهد أحد المريدين يرفع طرف «المسند» الذي يجلس عليه، ثم يعيده ثانية إلى وضعه الأول، فظن شمشاد علي أن هذه الحركة مظهر من مظاهر التكريم والتبجيل، لكن حين جاء أخوه؛ ليأخذه بعد حلول الظلام، قام خادمه مبارك خان برفع جميع أطراف المسند وجمع «رزمًا» من الأوراق المالية، في تلك اللحظة ابتسم شمشاد علي - ولأول مرة - ابتسامة عريضة واحدة، وقال:

«ظننت أن الناس يتلمسون البركة من المسند أيضاً، كما يتلمسونها من يدي وركبتي، الآن فقط عرفت أنهم كانوا يقدمون لي النذور».

فتبهنه أخوه، قائلاً: «شمشاد! هذه النذور لم تقدم لك، هذا مال المزار، هذا ملك «المقام الشريف» افهم! هذا المال وصل المزار عن طريقك وبواسطتك، وسوف تنال عن ذلك ثواباً عظيماً».

فقال شمشاد علي: «حتى لو حصلت على هذا المال كله، فماذا أفعل به؟! إن ربي يرزقني بما أحتاج... غداً سوف أقول للمريدين: لا تتلمسوا البركة من مسندي، وإذا كان عليكم أن تقدموا النذور، فلتذهبوا بها إلى أخي...».

فقال أخوه من فوره: «لا.. لا.. لا تفعل هذا أبداً.. أبداً.. فاهم.. إن النذور التي ترد عن طريقي شيء، والنذور التي ترد عن طريقك شيء آخر.. لماذا تقول هذا، فترتكب جريمة خفض إيراد المزار؟!».

قال شمشاد علي: «حسناً.. حسناً.. لكن إيراد المزار كله يؤول إليك أليس كذلك؟».

فرد الأخ، وقد ضاق ذرعاً بكلام شمشاد: «افعل ما قلته لك، ولا تدخل في جدال حول هذه النذور والأموال؛ حتى لا يفسد إيمانك».

فقال شمشاد علي، متظاهراً بالخوف: «حاضر.. حاضر».

وحين رجع المريدون من المزار إلى قراهم، ذكروا لذويهم وأهليهم أن الأخ الأصغر للشيخ الكبير قد شرف المزار بحضوره، وأن على وجهه نوراً عظيماً، فكأنه ملاك يجلس على مسند المشيخة،

وهكذا اصطف الناس طوابير طويلة أمام المزار، أما أمجد علي فكان بعد تقديم النذور يأتي من فوره إلى شمشاد علي، فينظر إليه ويحرق، وكأن بصره قد عشي، كان المریدون لا يضعون الأوراق المالية فقط تحت أطراف المسند، بل كان الحريصون منهم يعمدون من باب الاحتياط إلى حشو جيوب قميص شمشاد علي بالأوراق المالية.. وفي المساء يتولى مبارك خان، وهو من حاشية أمجد علي جمع النذور من تحت المسند وإفراغ جيب شمشاد من كل ما به، ثم يتوجه الاثنان معاً إلى حجرة جانبية، حيث ينهمكان في عد وإحصاء النقود، ويغرقان في الضحك، فببركة شمشاد علي تضاعف إيراد المزار، وتزايدت كمية النذور المقدمة للمقام الشريف.

بعد موسم حصاد القمح مباشرة، ينعقد «المولد» السنوي للمزار، فيتجه المریدون من طول المنطقة وعرضها إلى المزار محملين بأموال النذور، فيشحن كل من أمجد علي وشمشاد علي بالأوراق المالية وكأنهما خزانتان مكتظتان، وبمناسبة «المولد» وبسبب تدفق المریدين، وتزاحمهم تمزق جيب شمشاد علي من كثرة ما وضع فيه من نقود؛ نظراً لأنه لم يكن فيه متسع للمزيد من أموال النذور، فقام أحد المریدين وأراد أن يضع النذور في يد شمشاد علي، فسحب شمشاد علي يده، وانتفض، وكأن صاعقة أصابته، ثم نظر إلى المرید باستياء جعله يرتعد من الخوف، فنهض شمشاد علي، ومسح بيديه على رأسه، ثم وضع يده على صدره، قائلاً:

«اعذرنى يا أخى، فقد ظننت أنك تعطيني هذا المال، وأنا لا حاجة لي به، إن الله يعطيني ما أحتاج، هذا المال هو مال المزار، هو ملك

هذا المقام الشريف، لهذا لا تضعه في يدي، ولا تضعه في يد أي إنسان آخر؛ لأن صاحب اليد الذي يأخذ هذا المال يصبح نجسًا».

وهكذا أثبتت هذه الواقعة صدق «ولاية» شمشاد علي وعظمته، فراح الناس يتزاحمون عليه، حتى إن القلق ساور أمجد علي أحيانًا، فقد يلعب الزهر (النرد) لعبته، وينكشف الملعب، ويخسر كل شيء، ولكنه كان حين يرى مبارك خان وقد جمع «رزم» الأوراق المالية من تحت المسند الذي يجلس عليه شمشاد علي، ومن جيب شمشاد علي الواسع الذي خيط بالقميص بدلاً من ذلك الجيب الذي تمزق من قبل كان يلتزم الصمت، ولا ينطق بكلمة.

وذات ليلة حين غادر مبارك خان المزار بعد أن جمع النذور، رأى شمشاد ورقة بمئة روبية، وقد برز منها طرفها من تحت المسند الذي يجلس عليه، فتناول المنديل الموضوع على كتفه، ولفه على يده، ورفع بيده ورقة المئة روبية واتجه إلى حيث يجلس أخوه، ففتح الباب فوجد أمام أخيه أمجد علي أكوامًا مكدسة من الأوراق المالية فئة مئة الروبية وفئة خمسين الروبية وفئة عشر الروبيات وخمس الروبيات والروبية والواحدة، ومبارك خان يقوم بترتيبها وعدّها، واستاء أمجد علي من دخول شمشاد علي المفاجئ، فقال:

«شمشاد.. حجرتك هناك في الناحية الأخرى، ماذا جاء بك هنا؟!».

أما مبارك خان فضل جالساً، حيث كان لم يغير من وجهته، فقال

شمشاد علي:

«مبارك خان نسي هذه الورقة، هناك تحت المسند، ففكرت أن آتي لأعطيكما إياها».

فهدأت نائرة أمجد علي وقال: «ضعها هنا».

فأسكن شمشاد علي مئة الروبية يد مبارك خان، وجلس بجوار أكوام الأوراق المالية، وراح يدقق النظر فيها، ثم قال: «هذا المبلغ كله ملك للمزار! أليس كذلك يا أخي العزيز؟».

«نعم.. نعم...» أجاب أمجد علي.

كان هذا بمنزلة هجوم آخر مفاجئ على أمجد علي، وراح شمشاد علي يتساءل كطفل يستفسر عن شيء لا يعرفه:

«لكن في أي شيء تنفقون هذه الأموال يا أخي؟».

فقال أمجد علي: «هذا المطبخ الذي يعمل ليل نهار، وما تقدمه من أجل تكريم الضيوف الأعداء القادمين من أماكن بعيدة، وتلك الرواتب التي قررناها للمساكين واليتامى والأرامل، والمولد الذي يعقد كل سنة والذي ننفق عليه تقريباً مئة ألف روبية، و...».

فقاطعه شمشاد علي، وهو ينهض من مكانه: «أخي، أنا لا أعرف الحساب لكن أقول بالتقريب: إن ما يجمع فقط في وقت المولد من نذور هو بالتأكيد يعني أكثر من مئتين وخمسين ألف روبية».

فقال له أمجد علي، وهو يحدق في وجهه: «ألم أقل لك: ألا تتدخل في مثل هذا الجدال حول النذور والأموال؛ لتلا يفسد إيمانك؟!».

فانسَل شمشاد علي من الغرفة كطفل علت وجهه مسحة من ندم،
بعد أن انكشف ما وقع فيه من خطأ.

في فصل الشتاء وذات يوم، دهش أمجد علي، وتحير حين رأى بعض
المريرين يتهامسون فيما بينهم أمام المسند الذي خلا لأول مرة من
الشيخ، وراح أحدهم يتساءل:

«يبدو أن شيخنا الفاضل بعافية؟!».

فرد عليه آخر:

«لقد نهض الآن، وذهب إلى حجرته، لكنه كان يتعثر وكأن الأرض
تميد به، وراح يتلوى منحنيًا على ركبتيه...».

وصل أمجد إلى حجرة أخيه، فوجده يتلوى من شدة الألم، ويسعل
ويلهث بشدة، وقد تقطعت أنفاسه، فراح أمجد علي يتأمل حالة أخيه،
وعرف أنه قد ابتلي بداء «ذات الجنب»، فأخذ بعض الأدوية من أحد
(الحكماء) وقرر في الوقت نفسه أن يعيد شمشاد علي فورًا إلى قريته
مسقط رأسه، إنه الالتهاب الكلوي الذي يحمل رسالة الموت، لهذا أراد
أن يبقي شمشاد علي في لحظاته الأخيرة مع زوجته وابنه؛ حتى لا يتهم
بأنه كان سببًا في موت أخيه غريبًا عن أهله.

وحمل شمشاد علي، ووضع على السرير المفتول من حبال قائمة
على أربع أرجل خشبية داخل بيته، وأرقدوه على جنبه الأيمن، فانفض
من فورهم، قائمًا، وقال:

«وخز.. وخز شديد يؤلمني.. وخز آه، وخز».

قال أمجد علي:

«في الالتهاب الكلوي يحدث وخز، بل ألم فظيع.. يرحمنا الله!».

وفي صباح اليوم المقبل حين قدم أمجد علي؛ ليسأل عن حال أخيه. قال له شمشاد علي: إنه حين أراد أن يرقد على جنبه الأيمن شعر في داخل تجويف الحوض في جسمه كأن وخز سكين حاد يمزق داخله. وجاء الطبيب ففحص بدقة الجنب الأيمن من جسم شمشاد علي، فلم يجد أي بثور أو دمامل أو أورام ولم يجد حتى أي علامة تدل على ذلك، فطلب الطبيب من شمشاد علي أن يرقد أمامه على جنبه الأيمن إلا أنه صرخ، قائلاً:

«ليس هناك أي تغيير في حدة الألم الشديد الناتج عن هذا الوخز

الذي يمزق داخلي».

نظر الطبيب ناحية أمجد علي، وكأنه يقول له: إن المرض الذي

أصيب به شمشاد علي قد عرف سببه، ثم انتحى به جانباً، وهمس في أذنه، قائلاً:

«لا يمكنني سوى القول: إن هذا هو وخز الموت».

قال أمجد علي:

«لكن.. حضرة الطبيب.. لماذا لا يشعر بهذا الوخز، وهو على جنبه

الأيسر!».

وفجأة تحول الطبيب إلى فقيه، فقال: «إن الميت يوضع في القبر على جنبه الأيمن، حتى تكون رأسه في اتجاه القبلة.. والشيخ الصغير يشعر بهذا الوخز حين يكون على جنبه الأيمن؛ لأنه غير مستعد ذهنياً للموت... وإلا فما عساه يكون السبب؟!».

وفي اليوم المقبل حين رأى واحداً من كبار العائلة المعمرين أن آخر لحظات شمشاد علي قد قربت وروحه سوف تنتقل إلى بارئها بين لحظة وأخرى، قرر أن يبدأ الحضور في ترتيل سورة «يس»، وأن يديروا شمشاد علي إلى ناحية القبلة، وعلى جنبه الأيمن. وحين أداروا جسم شمشاد علي على جنبه الأيمن إذا به ينهض مضطرباً منزعجاً، ويقول:

«وخز.. وخز.. وخز».

فوضع فقيه القرية يده تحت الجانب الأيمن من جسمه وراح يحركها هنا وهناك، وفجأة أشار عليهم بأن يجعلوه يستلقي على ظهره، ثم راح يخرج من جيب شمشاد علي أعداداً كبيرة من الأوراق المالية التي أصبحت طياتها من كثرة تحركه يميناً وشمالاً مدورة كالحصيات ذات الأطراف المدببة.. وحينئذ فتح شمشاد علي فمه، وقال بصوت خافت:

آه.. إنها تلك الروبيات من نذور المزار هي التي تخزني هذا الوخز.

obeikandi.com

منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية

- ١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.
- ٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.
- ٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.
- ٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبد الباسط بدر.
- ٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.
- ٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.
- ٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.
- ٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.
- ٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.
- ١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.
- ١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.
- ١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار ظليمات.
- ١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.
- ١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.
- ١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.
- ١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.
- ١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

- ١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليلة الحمد.
- ١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.
- ٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.
- ٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.
- ٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».
- ٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات.
- ٢٤- الأمال صارت آلاماً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفى أوغلو.
- ٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزديناه.
- ٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.
- ٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباتي.
- ٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.
- ٢٩ - عقد الروح - ديوان شعر - نبيلة الخطيب.
- ٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية - فاطمة محمد شنون.
- ٣١- فوهة الجرح - مجموعة قصصية - سكينه قدور.
- ٣٢- الأرض الجريحة - مجموعة قصصية - صورية مروشي.
- ٣٣- نوبة قلبية - قصص قصيرة - من الأدب الأردني - ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم.

صدر في سلسلة أدب الأطفال

- ١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.
- ٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.
- ٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.
- ٤- مذكرات فيل مفرور - د. حسين علي محمد.
- ٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.
- ٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.
- ٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.
- ٨- أغنية للقيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.
- ٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.
- ١٠- شيماء - قصص - حسن القشتول.
- ١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.
- ١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.
- ١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ - ص.ب. ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٢٤٣٨٨-٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org

المؤلف في سطور

- د. سمير عبد الحميد إبراهيم.
- ولد في محافظة الشرقية بمصر عام ١٩٤٦م.
- حصل على الليسانس من آداب القاهرة ١٩٦٧م، وعلى الماجستير في اللغات الشرقية ١٩٧١م، وعلى الدكتوراه في اللغة الأردية وآدابها من جامعة البنجاب ١٩٧٨م.
- عمل في الهيئة التدريسية في جامعة القاهرة من ١٩٦٧-١٩٧٨م، ثم في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض من ١٩٩٤-٢٠٠٦م.
- أستاذ اللغات الشرقية وآدابها بجامعة دوشيشا باليابان.
- له عدد من المؤلفات من أهمها:
 - إقبال وأرمغان حجاز (رسالة الماجستير).
 - الأسرار والموز لإقبال.
 - الأدب الأردني الإسلامي.
 - الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردني.
 - معجم الألفاظ العربية في اللغة الأردية.
 - إقبال والعرب.
 - الإسلام والأديان في اليابان.
- وقد فازت مجموعته القصصية (نوبة قلبية ..) بالجائزة الثانية في مسابقة الرابطة في ترجمة الإبداع من آداب الشعوب الإسلامية. وله مشاركات مستمرة في الكتابة عن الأدب الأردني في مجلة الأدب الإسلامي وغيرها من المجالات العربية.